محمد صدّيق المزاتي

عجائب القاهرة وغرائبها

■ لعنة الفراعنة تطارد العلماء والمكتشفين فيجرون عراة في الشوارع !

■ عندما تحرك جبل المقطم من مكانه !

عبد سيدنا موسى بالقاهرة

حفية تذاع لأول مرة .

مكتبة مدبولي - القاهرة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عجائب القــاهرة وغرائبهـــــا



محمد صديق المزاتي

عجائب القاهرة وغرائبها

مكتبة مدبولي - القاهرة

الطبعة الاولى

١٩٨٣

الإهداء

إلـــى روح والدتـــي التـــي أخالهـــا يمامـــة خضراء طـــارت
مـــن الجنـــة لترفـــرف فـــوق تلـــك السطـــور ...
إلـــى روحهـــا الطاهـــرة ، أهـــدي هـــذا الكتـــاب ...

المـــؤلف



مقدمة

عندمـــــا مـــر الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة (١) بمدينة مصر (القاهرة) أذهلته وروعته ، ذلك أنه راى فيها بدعا وأعاجيب ، عـــادات وتقاليد ضاربة جذورها في القدم ، فهي مستمدة من حضارة عريقة امتلـك شعبها نواصي الدنيا شرقا وغربا أيام كانت الممالك والامبراطوريات تعيش على الصيد والقنص أو تحترف قطع الطرق وتعيث في الارض فسادا ، ومع كل تلك العراقة ، فان أهل تلك المدينة قوم عصريون الى حد البدعة والاثارة ، فهم يعيشون اللحظة التي يحيونها ... فالسقاء في حارته ، والامير في قصره والوالي في معيته وجواريه ، كلهم انسان له حق الحياة ، الحياة الحرة الكريمة ، الضاحكة المنطلقة المغرقة في الغرابة في اطار من التقاليد المرعية ، له أن يشكلها كيفما يريد وبأي طريقة شاء لها مزاجه وهواه ..! ومع ذلـك فان أهلها أناس طيبون يحفظون القرآن في صدورهم وتجلجل أصواتهم بذكر الله على المآذن ، ففي كل درب زاوية ، وكل شارع مسجد ، وكل ميدان حلقة للذكر ، وكل خطوة ناسك أو متصوف يذكر الله قياما وقعودا وعلى جنبه ... ولقد أتيح لى أن أقرأ كتاب ابن بطوطه(٢) ، ذلك السفر الذي أملى روائعه على الأديب المغربي بن جزى الكلبي .

ذلك الرجل المعمم الذي جرى حب التنقل في دمه فلقد صادف الاهوال

---

(١) هو محمد محمد بن عبد الله الطنجي نسبة الى طنجة بالمغرب وشهرته ابـن بطوطه ولد عام ٧٠٣هـ (١٣٠٤م) وزار تونس والشام والحجاز والهند والصين والصومال في بلاد افريقيا .

(٢) تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار .

وتعرض للسطو وقطاع الطرق والمرض في البلاد التي فيها الشمس لهبا أحمرا فكان يربط بالحبال على ظهر جمله ورأسه متدل الى أسفل كلما انتابته حمى في الطريق ... ورغم ذلك فانه قد واصل رحلته العجيبة التي استغرقت عشرين عاما محاطا بزوجاته ومحظياته وجواريه وجماله المحملة بالذهب والجواهر والنفائس ..!!

أقول طالعت هذا الكتاب ، فأذهلني وأسعدني وآلمني ...!!

اذهلني لما فيه من عجائب أولى الكلام عنها أن يعزف على ربابة أو يغنى على أرغول ، لا أن يسطر بمداد أسود في صفحات كتاب عادي وأسعدني أن يسمي هذا الرحالة العملاق القاهرة أو مدينة مصر على حد تعبيره بأنها «أم البلاد» أي «أم الدنيا» رغم ما شاهده من عجائب الارض بل ويصر على تلك التسمية حتى النهاية ... وآلمني أن يملي على أديبه ذلك الكتاب الذي (أخاله) قد جاوز الالف صفحة ولا يكتب عن القاهرة سوى سبع صفحات أو تزيد في الوقت الذي تحدث فيه عن بلاد أقل غرابة باسهاب شديد ..! لقد تحدث ابن بطوطة عن أشياء كثيرة رآها في القاهرة ، تحدث عن أهلها فوصفهم بأنهم «قوم يحبون اللهو ذوي مرح وحبور» وتحدث عن جزيرة الروضة فوصفها بأنها «بقعة فسيحة ذات رياض يتخذها أهل مصر مكانا للهوهم وسرورهم » وتحدث عن الحوانيت التي تعلق عليها الزينات في المواسم والأعياد والمناسبات ، وعن قرافة مصر وجبل المقطم الذي «وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة» وعن المحمل ووصف موكبه ومسيرته الرائعة الى القلعة «دار الملك الناصر» وكيف يتقدمه القضاة الأربعة راكبين جمالهم ومعهم وكيل بيت المال والمحتسب وأعلام الفقهاء وأرباب الدولة ومن ورائهم حشد هائل من الرجال والنساء والأطفال فاذا ما وصلوا اليها خرج اليهم الامير المعين لسفر الحجاز ومعه عسكره والسقاؤون على جمالهم والحداة يحدون أمامهم «فتهيج» العزامات وتنبعث الاشواق وتتحرك البواعث، ويلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد» ... كما تحدث عن السقائين والمكارين فأخبر أن بها اثني عشر الف سقاء وثلاثين الف مكار وأن بنيلها ستة وثلاثين الف

من المراكب للسلطان والرعية ، أيضا تحدث عن المارستان ومقامات الأولياء والصالحين وعلى رأسها مقام الامام الحسين بن علي رضي الله تعالى عنه حيث دفنت رأس الشهيد العظيم وكيف أن «أهل مصر يوفون المشهد الطاهر حقه من التبجيل والتعظيم » ... « كما توجد بها مقبرة فرعـون العاليـة ـ الهرم الأكبر ـ وهي بناء مرتفع مغلق الجوانب عند الواجهة الشمالية منه . والتي أمر أحد ولاة مصر باحداث فجوة فيها وذلك برشها بالخل واشعالها بالنار ، فلما فتحت وجد بها من الذهب ما يفوق المال الذي أنفق من أجل هذا الغرض» .

تلك أهم الأشياء التي ذكرها ابن بطوطه في كتابه حال وصفه القاهرة بيد أن ما فاته ذكره يفوق ذلك بكثير ، فالهرم الأكبر أو مقبرة فرعون العالية أن هي الا واحدة من عجائب الدنيا السبع قبل أن يوجد للدنيا عجائب غيرها وأن ما وراءها لقصة لا يصدقها عقل الا أن تكون رؤيا من الرؤى أو حلما من الأحلام ... وأهم من ذلك تلك اللعنة التي تدمر كل من يقلق الملك في نومه وهي أشد فتكا من كل القنابل وأدوات التدمير التي اخترعت حتى الآن ...!!

ايضا لو تأملنا تلك المقابر لوجدنا بها أجسادا تكـاد تنبض بالحياة رغم مرور ثلاثة آلاف سنة على وفاة أصحابها وذلـك بسبب شيء بسيط اخترعه الفراعنة اسمه (التحنيط) !! بالقاهرة كذلـك حصن بابليون الذي حاصره عمرو بن العاص واستولى عليه عندما فتح مصر والذي ما تـزال آثار النبال والسهام على جدرانه ثم ان بالمسجد الحسيني آثار مـن مخلفات الرسول صلى الله عليـه وسلم قمصانـه ومراوده وازاره وشعرتان مـن اللحية الكريمة ولمجيء رأس سيد شباب أهل الجنة الى القاهرة قصة ، ثم أن بها مقام السيدة زينب رضي الله تعالى عنها وأرضاها ولمجيئها هي الأخرى تاريخ ، الأهم من هذا أن في القاهرة عاش ثلاثة أنبياء على الترتيب هم: يوسف وموسى وعيسى عليهم السلام فالأول والثاني قد تربيا في قصر فرعون ولكل منهما قصة أخبر عنها القرآن الكريم بافاضة وشمول كما ولاتزال بعض آثارهما باقية الى الآن فالمعبد الذي تقرب فيه سيدنا موسى

الى الله عز وجل قبل أن يبلغ بالرسالة والذي يؤكد اليهود أن مباراة «الحية» قد أجريت فيه ما زال يرى رؤى العيان كما يوجد به الكيلة التي كال بها سيدنا يوسف الغلال لاخوته أبناء سيدنا يعقوب عندما كان وزيرا لمخازن فرعون ، أما الثالث ، فانه قد جاء اليها هربا من الحاكم الروماني هيرودس لما رأىانه يشكل خطرا على سلامة الامبراطورية الرومانية في الشرق حيث اختبئت به السيدة العذراء في المغـــارة الواقعة أسفل الكنيسة المعروفة بكنيسة أبي سرجة بمصر القديمة ... لكل هذا ، أو من أجل هذا فان ابن بطوطة لو أراد من الدنيا عجبا لكفته القاهرة ولكن ما باله يتجاهل كل تلك الحقائق ويروح يذكرها ذكر عابر في الصحراء صادفته واحة أو راكب للبحر رأى فوق الأمواج عروس ...!!؟ على أية حال ومهما تكن الأخطاء التي وقع فيها فانه يكفيه حمدا أنه اكتشف حقيقة تلك المدينة العجيبة فأحاط بها احاطة عالم لنظرية عملية أو فيلسوف لحقيقة كونية وأي عالم هذا الذي يستطيع شرح نظرية في كلمتين وأي مفكر ذاك الذي يصف للناس أعجب مدن الدنيا ويعرفها تعريفا جامعا مانعا في نفس هذا العدد من الكلمات ...!!

أقول لا ملامة على ابن بطوطة فكما ان لكل عالم طريقته في البحـــث ولكل أديب ديدنه في الكتابة ولكل فيلسوف منهجه في الاستدلال فانلكل رحالة أيضا ظروفه ولكن اللوم ... كل اللوم يقع على حملة الأقلام في مصر في شتى مراحل التاريخ ، فهم القادرون على السير في مسالك البحث ومطابقة الشكل على المضمون لاثبات ما وراء تلك التسمية من حقائق ودلالات ، ان كتابا يحمل تلك التسمية التاريخية لخير سفير لنا في كل بقاع الدنيا ... سفير لايتأثر بعلاقات سياسية من أي نوع ، فالسفير يتأثر بقطع العلاقات وتكدر الأفق السياسي ، ولكن كتاب مثل هذا يؤدي رسالته لبلدنا غير متأثربهذا أو ذاك بل ان مما يرثى له أن الدول الحديثة تنفق الملايين اليوم في الدعايـــة لنشاطاتها وهي التي لا يربطها بجسر التاريخ غير قنطرة أو معبر صغير ، ونحن قد ورثنا تركة حضارية على امتداد سبعة آلاف عام أو تزيد ثم نروح نكتب عن سيكلوجية الجنس وقضايا العوالم ومعاناتهم وكيف ان الناس ينظرون اليهم من عل لكأن القاهرة قد استحالت مدينة للملونين حيث تجري التفرقة على قدم وساق ...!!

أيضا وجد من الصحافيين من يجري لاهثا ليكتب ريبورتاجا عن فلانة ويدبج مقالا عن علانة أو يتسقط خبرا عن تلك التي اشترت رموشا صناعية أو ابتاعت باروكة لتظهر بها في استعراض راقص أو فاصل غنائي ...!!

اقول لقد كان أولى بهؤلاء أن يلتقطوا (الخيط) ليصنعوا منه نسيجا كاملا ... أن يلتقطوا شهادة رحالة كبير مثل ابن بطوطة ويدمغوها بالحجج والبراهين على أن القاهرة (فعلا) هي أم الدنيا وأن تلك التسمية لم تأت عبثا أو مجاملة ذلك انها عاصمة من أكبر عواصم الدنيا وأعرقها وأجملها ... القاهرة نقطة مضيئة بين الشرق والغرب بل هي صمام الامان في الحـــزام الناسف بين الكتلتين ... أن السائح اليوم يأتي اليها ليشاهد أهراماتها ومآذنها ونيلها الجميل وبلبلها المغرد وشمسها الساطعة يأتي اليها ليلمس لعناتها ويحظى ببركاتها ويضحك ملء شدقيه مع أبنائها ملوك الظرف وخفة الدم بعد أن كاد أن ينسى نفسه أمام الرادار والالة الحاسبة ...! أعجب من هذا اننا اذا نظرنا اليها وجدناها مدينة واحدة من حيث الشكل مدنا متعددة من حيث المضمون فهي لمن شاء تقسيما فنيا : مدينة للاثار والظرفاء والليل والمتناقضات والصحافة والأدب ... انها كل ذلك وستظل فلقد بخل الدهر على كل المدائن بالقليل وأعطاها الكثير ، لا لشيء الا انها أم تلك المدائن ... أم الدنيا ...!!!



مدينة الآثار

ا ـ متحف الذهب

متحف الاثار المصرية :

يتميز هذا المتحف دون متاحف العالم بثلاث مميزات هي:

١ ـ احتوائه على اكبر مجموعة من الآثار والموميات البالغة الندرة والقدم .

٢ ـ كمية الذهب الهائلة الموجودة به والمصنعة تصنيعا رائعا في شكل تماثيل وأسرة وحلى وكراسي للعرش وأحجبة وتوابيت في اطار من التنسيق الدقيق .

٣ ـ اللعنة الكامنة وراء كل قطعة فيه والتي حيرت العلماء والباحثين من مختلف الجنسيات والتخصصات ....!! فكل من حاموا حول تلك الآثار من أطباء ومنقبين ومؤرخين قد حاقت بهم اللعنة فدمرتهم ، بل ان بعض المقربين من هؤلاء والموجودون في بلاد بعيدة قد نكلت بهم شر نكال فاذا كان العالم قد اتى الى مصر لاكتشاف أثر في صقارة أو ميدوم وترك سكرتيره في لندن فانها تحل به هنا في نفس اللحظة التي تحل فيها بسكرتيره الموجود في العاصمة البريطانية ، انها تطاردهم فترميهم بالأحجار فيسقطوا قتلى أو ترسل اليهم حشرات غريبة تلدغهم فيموتون في الحال أو تصيبهم بالجنون فيسيرون عراة

في الشوارع أو بالشلل فلا يستطيعون الحركة أو الكلام وربما عصرت النـــار في أفواههم وجرجرتهم على رمال الصحراء فيصرخون من الأهوال في الوقت الذي لا يستطيع فيه كبار الأطباء أن يصنعوا لهم شيئا ...!!!

ولكن أولا ما هي موجودات المتحف التي تكمن وراءها كل تلك اللعنات.

(١) مفردات المتحـــف :

الدور الاول :

أول ما يطالعنا في مدخل الدور الأول تمثالان لرمسيس الثاني الذي اغتصبت منه العرش ابنه مرسن بتاح وكان أصلا على قاعدة من الحجـــر الجـــيري .

— تابوتان من الحجر الاشهب لرجل يدعى «جحر» .. واخر يدعى «تاخوس» وكـــان ضابطا بالجيش في عصر البطالسة .

— تمثال كبير لمارك انطونيو .

— تمثال صغير غريب الشكل يمثل طائرا له ذيل وأرجل ومخالب بشر وقد رفع بمخلبه الأيسر درعا من حديد .

— طبل اسطواني الشكل فاحم اللون من الجلد المشدود على شكل زهرة لوتس .

— لوحة زجاجية بها بعض التحف وفيلان أحدهما من الحجر الأسود وقد ركب فوق ظهره مقاتل ذي لحية وعلى رأسه غطاء يشبه التاج ويبدو من الدرع الذي يحمله انه يتأهب لخوض معركة .

— لوحة شرف من العصر اليوناني / الروماني وقد كتبت بلغات ثلاث ، الهيروغليفية (لغة الادب المصري القديم) والديموطيقية (لغـــة العامـــة)

والاغريقية (لغة الفاتحين) وقد أصدرها كهنة مدينة كانوب وعددوا فيها بنود الشرف ومميزاته وفضائله وأهدوها الى بطليموس الثالث .

ـــ تمثال جميل من الرخام طوله متران لخطيب ربما كان أغريقيا أو رومانيا بطاقيته وجلبابه الواسع الفضفاض وهو يشير بسبابته بحماس .

ـــ نموذج مصغر لحجر رشيد باللغة الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية وقد آل (الحجر الأصلي) الى انجلترا طبقـا لنصوص معـاهدة سنة ١٨٠١ م .

ـــ لوحة تمثل العجل (بوخيس) الذي كان يعبده قدماء المصريين في منطقة من أرمنت بالصعيد وكان يسمى باليونانية «بوخيوم» وبالمصرية «بر ـــ أتم» حيث كان يدفن بعد تحنيطه في مقبرة عليها شاهد أو لوحة تذكارية وبجواره مائدة للقربان ولقد اعتقد أهل تلك المنطقة بأن روح (الاله) تحل في عجل له علامات مميزة كأن يولد من بقرة عذراء ، فاذا ماتـت أناث الابقار دفنت على مقربة منه بيد أنهن لم يكن ينلن حظـا من العبادة مثله ...

الدور الثاني :

قاعة توت عنخ أمون:

لعل أهم ما يطالعنا في تلك القاعة هو الذهب .. الذهب الذي يخيل اليك معه انك اذا خرجت الى «ميدان التحرير» ستجد كل شيء فيه قد تحول هو الاخر الى ذلك الشيء الساحر الذي يخطف الابصار ...! فالهيلتـون له واجهة وشرفات ذهبية والجرسونات والمتر ، والمترودوتيل والموظفين وعمال السرفيس كلهم جميعا يلبسون حللا موشاة بخيوط ذهبية مرصعة بالماس والياقوت ، بل ان عربات الأتوبيس في قلب الميدان الكبير قد تحولت الى ذهب عيار ٢١ ...! فعند أول سلمة لنهاية الدور الأول وبداية الدور

الثاني تطالعنا دستة من الكلاب الذهبية النابحة التي تحمل ثلاث اسرة كبيرة من الذهب عدا سرير رابع تحمله اربعة اسود ذهبية باكية ، فاذا امتد بصرك الى نهاية الممر رأيت سبعة توابيت مختلفة الأحجام أصغرها متران في ثلاثة واكبرها يبلغ حجم شقة صغيرة وهذه التوابيت السبعة ذهبية ..!كذلك كرسي العرش والأقواس والرماح .. السهام والنبال ، باختصار كل شيء هنا ذهبا في ذهب ، لكن الذي ذكرت لا يعد شيئاً بالقياس الى كميته الموجودة في قاعة توت عنخ آمون والتي أمن على جزء يسير منهـا بخمسون مليوناً من الدولارات عند سفرها الى أوروبا وأمريكا ..! فأنت عندما تدخل القاعة الكبيرة جدا للملك الصغير جدا(١) يخطف بصرك بريق الذهب المتوهج هنا وهناك كأنك تسير بين أجران القمح في موسم الحصاد ، انه يحسن بنا قبل الاستطراد في وصف قاعة الملك المدلل ذو الاسم الشاعري(٢) أن نعود الى الاسرة الاربعة لنرى حكاية الكلاب النابحة والاسود الباكية ، يقولون ، والكلام لعلماء الآثار انه قد جرت العادة في مصر القديمة على تحنيط الملوك علـى أربـع مراحـل :

الأولى: وفيها يتم تفريغ البطن من الأحشاء والنفايات ، الثانية: وتوضع فيها مواد التحنيط كالملح والمر والأطرون وما أشبه .

أما الثالثة: فيتم فيها قفل الجثة بخيوط متينة تجهيزا للمرحلة الرابعة والاخـيرة حيـث يلف الجثمان بالاقمشة المطلوبة وتطوق الرقبـة بالعقود والتمائم والتعاويذ والحلى المختلفة الأمر الذي يفسر وجود العدد السابق من الأسرة بلا زيـادة أو نقصان ، فكل سرير تجري فوقه مرحلة من مراحل التحنيط ولـمدة عشرة أيـام يدفـن بعدها الميـت أو يوضع في التوابيـت

---

(١) (١٨ سنة) .

(٢) لاحظ علماء الاثار ان اسم الملك مكون من ثلاثة اجزاء : توت وهو اسم عادي وعنخ ومعناه الحياة الجميلة اما امون فهو اسم الاله الذي كان يعبد في ذلك الوقت وعلى ذلك يكون المعنى الثلاثي للاسم هو : امون اله الحياة الجميلة ...

السبعة(١) ، وفكرة التوابيت هذه تشبه فكرة العلبة السحرية في الوقت الحاضر حيث تتكون العلبة الواحدة من عدة علب كل منها أصغر من الاخرى ليتسنى وضعها فوق بعضها البعض وعلى هذا اذا وضع الجثمان في أصغر التوابيت فانه يمكن ادخاله في التوابيت الباقية ، الأكبر فالأكبر وهكذا ، هذا ولقد قدر الكهنة والحانوطي (الحانوتي) أن جنة الملك اذا بقيت هكذا في العراء في حراسة جندي فلربما نام هذا وتركها عرضة للطيور الجارحة وهي التي ما بقيت هكذا الا لتجف أو انتظارا لتفاعل المواد الكيماوية فجعلوا لكل سرير من الأسرة الثلاثة الأولى قوائم تمثل الواحدة منها كلبا نابحا حفاظا عليها من الانقضاض • أما السر في استبدال الكلاب بأسود في السرير الرابع فذلك لان الاسود ترمز الى قوة الملك حال حياته ، آية ذلك اننا نشاهد في ركن اخر من القاعة تمثالا صغيرا له وهو يقف فوق ظهر نمر وقد صوب رمحه الى ساحة الحرب دلالة على ما له من بأس وقوة تخضع البشر والوحوش على السواء ...!! ومن ناحية أخرى فان تلك المرحلة لا تحتاج الى الكلاب أو حراس وهي التي كما سبق أن قلنا مرحلة فيها التفاف الكهنة ورجال البلاط حول الجثمان لوضع العقود والتعاويذ والزهور والأحجبة ، فهي اذن مرحلة طقوس ورمزيات اكثر منها في المراحل السابقة نعود بعد ذلك الى الغرفة الكبيرة فنجد له تمثالان كبيران من الذهب أصل وصورة أو أصل وأصل ، فالواحد لا يفترق عن الآخر من حيث الشكل .. بل مما يثير الدهشة تلك (المفردات) التي امتلأت بها الفاترينات الزجاجية حتى لتبدو وكأنها قطع غيار لآلة أو ماكينة عملاقة ، فهذه نماذج لأكف الملك وتلك للأذرع وأخرى للأصابع ، البنصر والسبابة والابهام يماثلها نماذج للقدمين وأصابع القدمين ...!! أيضاً هناك نماذج لعصى الملك واحجبته وتعاويذه وعقوده وكل تلك جميعا من الذهب الخالص أما آثار الملكة (٢) فتبدو في شكل أحذية وقلائد وجمارين وأساور من العقيق وأقراط من الماس الى جانب مجموعة هائلة من المكاحل والفواشات الجلدية والزجاجات العطرية والكحل المسحوق

---

(١) أثبت علماء الاثار ان فكرة (الاربعين) التي تعقب وفاة الميت في العصر الحديث مأخوذة من تلك التي كانت تنتهي فيها مدة تحنيط الميت عند الفراعنة •

(٢) غنخسنباتن •••

المختلف الألوان ، وغني عن البيان ان القاعة تزدحم بالعجلات الحربية ومراكب الشمس كما يوجد بها كرسي العرش وهو بطبيعة الحال من الذهب الخالص .

قاعـــة المومیـــاء :

لعل من أسباب شهرة تلك القاعة هو ذلك الفرعون الذي أخبر عنـه القرآن الكريم والذي التقى بسيدنا موسى طفلا ونبيا ، أقصد منبتاح (من الاسرة ١٩) ، عملاق حاد الانف عريض الجبهة تبدو سيماء القوة في قسمـات وجهه المتجهم والغطرسة من نظرات عينيه الواسعتين اللتين احتفظ لهما التحنيط ببقية من شعاع حارق ، لقد كان بمقدوره سبحانه أن يجعل من جثته طعاما للحيتان ولكن شاءت ارادته أن يجعل منها مجرد مومياء داخل صندوق زجاجي لتتخطاه أنظار من لايعرفونه وتحتقره نظرات من قرأوا قصته في القرآن الكريم ... أيضا من أسباب شهرتها احتواءها علـى عدد من الموميات لمشاهير الملوك كرمسيس الثاني وتحتمس الاول وتحتمس الثاني وسنقرع الثالث ، غير انه لما كان الجمال درجات والقبح درجات فان المحنط قد استطاع أن يحفظ للجميلة جمالها ونضارتها وللقبيحة قبحها ودمامتها ففي الوقت الذي تتربع فيه «حنت توي» زوجة بايتزم الأول على عرش الجمال بعينيها الواسعتين وأنفها الارستقراطي ووجهها المستدير كهالة مـن الضياء ، في نفس الوقت تبدو «ستكامي» زوجة تحتمس الاول بالغـة القبح بوجهها الصفير الصديء وعينيهـا الضيقتان وشعرها الاكـرت وشفتيها المزمومتين كبصقة شيطان ...! المهم أو الذي يعنينا من كل هذا أن التحنيط سر غريب بل علم نادر وفن قادر لأننا كلما توغلنا في البحث فيما خلفه الفراعنة طالعنا علم مسطور وفن منظور مسطور على الاوراق والاحجار لكأنه النقش على صفحات الماء وأمواج البحار فالعالم أو الكاهن قد مات وفي عقله أسرار خطيرة غير مستطيع أن يبوح بها لأحد لأنها ملك للفرعون وحده ، الفرعون (الاله) «زارع الحبوب ومفرج الكروب ، وقاهر الحروب ومنزل الغيث ومرسل الفيضان» هاكم على سبيل المثال تلك اللعنة التي حيرت العالم والجاهل ، انها كما قلنا أشد فتكا من كل قنابل العصر ومدمراته ، فالقنبلة يمكن تحاشي

شرورها ودرء مخاطرها ولكن اللعنة جاهزة للتدمير في اي زمان ومكـــان .
«جلس الكاتب الالماني فليب فاندلبرج(١) مع د . جمال محرز مدير الآثار المصرية في ــ عمر الخيام ــ بالقاهرة وجاء الكلام عن لعنة الفراعنة فضحك الأخير وهو يقول: انها شيء عجيب ولكني لا أصدق شيئا من ذلك ...! وسأله الكاتب ولكن كيف تفسر عشرات الحوادث التى أذهلت الطب والكيمياء ورجال الاثار ورجال الدين فضحك العالم المصري وهو يقول : لا أصدق .. أنظر ماذا جرى لي أنا شخصيا ... لا شيء ..! وفي ذلك الوقت كانت مصر تعد رحلة لتوت عنخ أمون الى لندن احتفالا بمرور خمسين عــامــا على الاكتشاف الانجليزي لمقبرته . وجاءت طائرتان حربيتان ونقلـــت مجوهرات الملك وتابوته . وكان مؤمنا عليها جميعاً بأكثر من خمسين مليونا من الجنيهات . وفجأة توفي د . جمال محرز عن ٥٢ عاماً . والتشخيص سكتة قلبية ...! » .

هذا الملك الكامل المقبرة والتابوت واللعنات قد حكم مصر تسع سنوات (١٣٥٨ ــ ١٣٤٩ ق.م.) وقد كشف مقبرته اثنان من الانجليز همـا كارتر واللوردكارتر فون .. أو على الأصح اكتشفها هوارد كارتر بأموال اللورد كارتر فون الذي توفي فجأة في ظروف غريبة عجيبة يوم ٥ أبريل سنة ١٩٢٢ بالقاهرة .

* * *

هذا اللورد من الأغنياء وكانت له حياة غريبة . فهو مغامر ومن اهم مغامراته انه كان يحب الخيول ويركبها عارية وعاريا وكان أيضاً يقتني عددا كبيرا من السيارات ، أيام كانت لعبة سباق السيارات محرمة في بريطانيا . ولذلك فقد كانت سياراته كلها من فرنسا وفي احدى رحلاته بالمانيا التفت السيارة حول نفسها وسقط هو والسائق . وتحطمت ذراعــاه وكتفاه وساقاه وتشوه وجهه تماما .. واقترب من السيارة بعض الناس فوجدوا اللورد مغمى عليه .. والقوا على وجهه بالماء حتى افاق ودخل المستشفى وجفف جروحه ودموعه ولكن ضيقاً في صدره ظل يخنقه مدى الحياة ولذلك

(١) راجع كتاب انيس منصور لعنة الفراعنة .



عالم الحفريات هوارد كارتـــــرمكتشف أشهر مقبرة في القـــــــرن العشرين

كان يهرب من برودة بريطانيـــا الـــى دفء الجنوب واتجه الـــى مصر سنة ١٩٠٣ ...

* * *

وفي ذلك الوقت كانت أعمال الحفر والتنقيب من أهم موضات العصر وفي القاهرة قابل العالم الأثري جاستون ماسبيرو مدير المتحف المصري وقدمه لرجل التنقيب الانجليزي هوارد كارتر الذي كان مهتماً بالآثار ورساما أيضا ويعيش في مصر منذ سنة ١٨٩٠م وكانت له حفائر في وادي الملوك لحساب بعض الأغنياء الأمريكان . وقد صدر له كتاب بعنوان «خمس سنوات من الاكتشافات في طيبة» وكان لدى كارتر هذا أيمان قاطع بأن هناك قبرا خفيا .. هذا مجرد شعور ولكن ليس لديه أي دليل علمي على صدق هذا الاحساس الداخلي . وقد عثر كارتر على أدوات وأشياء صغيرة تؤكد له انه يقترب بسرعة من شيء كبير .. أو على حد تعبيره هو: انني كالذي يرى طيور الشاطيء .. الطيور واضحة ولكن الشاطيء ليس واضحا . أو كالذي يرى أغصانا عائمة تؤكد له انه يقترب من غابة هائلة .. لقد تأكد لدى كارتر أن شيئا خطيرا سوف يتكشف أمامه . وبدأت ست سنوات من العذاب والعرق واليأس .. ويوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٢٢ أبرق كارتر الى اللورد يقول له: أخيرا اكتشفت شيئا رائعا في وادي الملوك . وقد أسدلت الغطاء على الأبواب والسرداب حتى تجيء أنت بنفسك لترى . وجاء اللورد الى الأقصر يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٢ وكانت ترافقه ابنته ، وتقدم كارتر وحطم الاختام والأبواب ، الواحد بعد الآخر حتى كانا على مسافة صغيرة من غرفة دفن الملك توت عنخ آمون . وامتدت يده وأحدث في الحائط فتحة . وأطل وخرج الهواء يحرك الشموع . هواء ينطلق لأول مرة منذ ٣٥ قرنا وفي صوت هامس مرتعش سأله اللورد:

ما الذي تراه ...؟

وأجـــاب كارتـــر الذي أدخل رأسه في الفتحة الصغيرة : ما لم تره عين



اللورد كارتـــر فون ممول مشروع الاكتشاف

منذ دفن الملك . وأتوا للمقبرة بباب حديد من القاهرة . وبدأ كارتر بــــرسم كل شيء وتصويره بمنتهى الدقة . وتطوع متحف نيويورك وأرسل له عددا من المصورين والرسامين والباحثين وعلماء اللغات والأطباء مساهمة في هذا الحدث الجليل ...

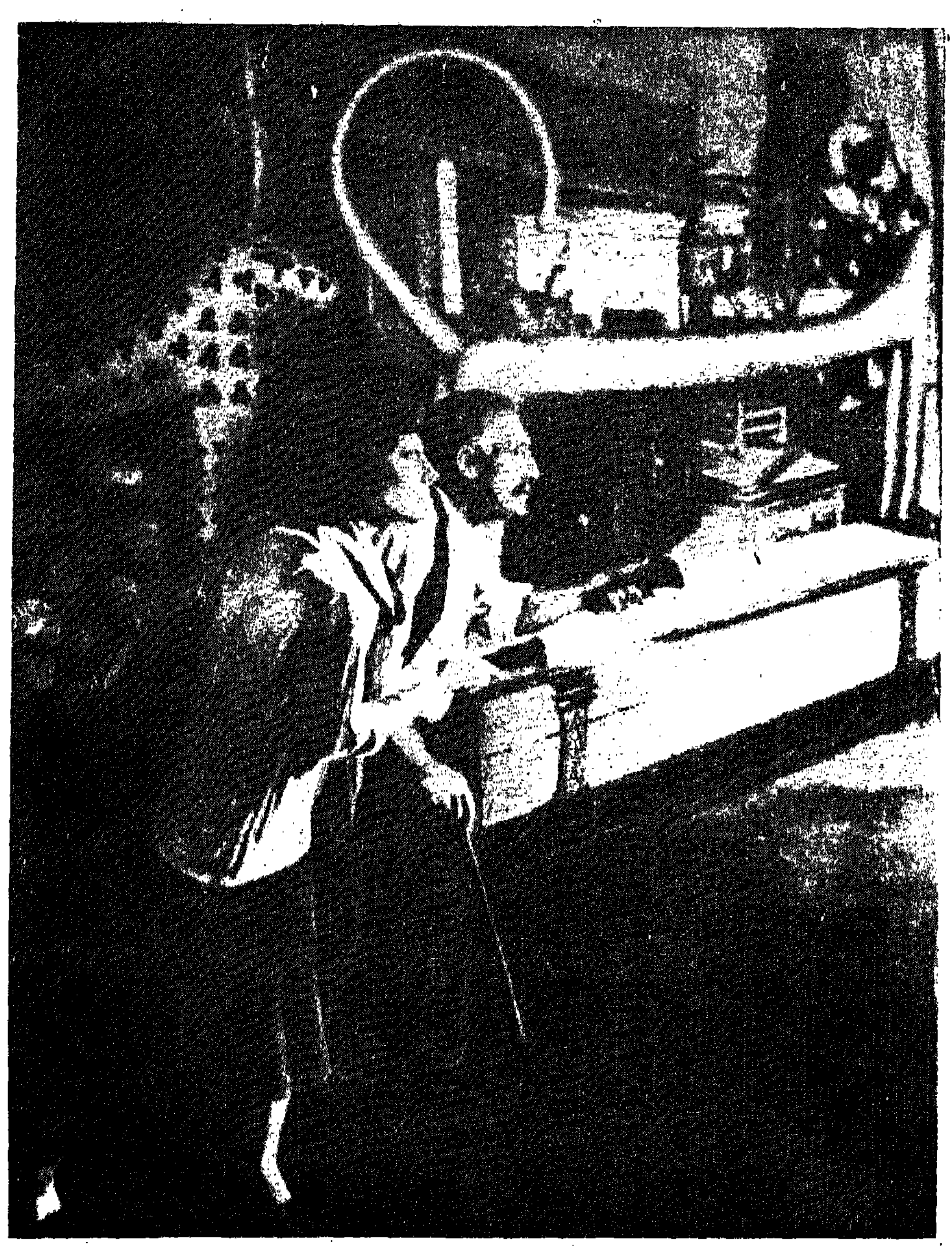
واهتزت الدنيا لهذا الكشف الرائع . وجاءت ألوف الخطابات الى المكتشف كارتر .. ومنها خطابات تؤكد أن له أسرة عظيمة في أمريكا وأن هناك أدلة علمية بذلك . وجاءت خطابات تطلب منه أن يبعث ببعض تراب المقبرة الى المعجبين والعشاق في أوروبا وأستراليا .. ويقول المؤلف: انه برغم هذه الحفاوة من كل مكان ومن كل الناس فان شيئا في قلب كارتر ظل يوجعه . لايستطيع أن يطلع أحدا عليه فقد وجد على أحد الأبواب عبارة تقول له : سوف يطوي الموت بجناحيه كل من يقلق الملك » ...!

ولم يكد كارتر يرى هذه العبارة حتى انزعج . ولكن الحدث الجليل والكنز الدفين والشهرة والذهب ، شغلت الرجل عن هذا الانذار المخيف فالتقط للعبارة صورة ، ثم مسحها بيديه ، فهو الوحيد الذي خاف ، وهو الذي اخفاها عن عيون العمال والمساعدين المصريين حتى لا يتوقفوا عن الحفر .

وقد عثر مرة ثانية على تحذير آخر منقوش على ظهر تمثال يقول: أنا الذى أطرد لصوص المقبرة والقي بهم في جهنم هذه الصحراء .. انني حامي توت عنخ آمون . شيء عجيب ! تحذيران في مقبرة واحـــدة . ولعنـــة سوف تحيق بمن يقترب ويقلق الملك . أو يذهب الى أبعد من تحريكه في نومته ...!

* * *

ويوم افتتاح المقبرة كـــان المفروض أن يشهد ذلك ثلاثة عشرة من الرجال ولكن الذين حضروا كانوا اثنين وعشرين ومن العجيب ان الثلاثة عشر رجلا الذين دعاهم كارتر لهذه المناسبة قد ماتوا الواحد وراء الاخر وفي



اللورد وابنته يتقدمان في حـــذر داخل ممرات المقبرة

ظروف غامضة تماما ...!

أما اللورد كارتر فقد أصابته حمى مفاجئة . وقال الاطباء ان السبب هو : ان في وجهه جروحا قديمة ... وقد أسال دماءه وهو يحلق لحيته مما أدى الى أن يصاب بالحمى ، وهو تفسير ساذج وكان اللورد يصرخ: النار في جسمي .. أو عندما يصاب بهذيان فيقول: انني ارى أناسا يدحرجوني على رمال الصحراء ويعصرون النار في فمي ..!! وجاء ابنه من الهند ليزوره وقد تمدد طريحا في فندق كونتنتال بالقاهرة . وجاءت الممرضة في الساعة الثانية الا عشر دقائق تهز رأسها : مات ..؟ وهزت رأسها تؤكد ذلك . وذهب الابن ليرى أباه وينقطع التيار في الفندق . وفي مدينة القاهرة كلها وفي اليوم التالي حاول أحد أن يجد تفسيرا لانقطاع التيار ولكن لا يوجد أي سبب معقول ....!! وفي نفس اللحظة وفي مدينة لندن صحا أهل بيت اللورد على الكلب الوحيد يعوي ويصرخ .. ثم يقفز الى سرير اللورد جثة هامدة ...! وعندما تزاحم أهل البيت يرون ما الذي أصاب الكلب سقطت منضدة ضخمة على القطة السوداء التي يتفاءلون بهـــــا فماتـــت في لحظة واحدة ...!

وبعد ذلك مات وارتر مبيس الذي بعث به المتحف الأمريكي وكان يعاون كارتر في الحفر .وجاءت وفاته نوعا من الاحتراق الشديد .. ارتفعت حرارته حتى أحس ان رأسه قد انفجر أو أن شيئا انفجر فيه ، وكان ذلك بعد وفاة اللورد بأيام ....!

وجاء المليونير الامريكي جاي جولد ليرى مقبرة توت عنخ آمون واطل برأسه وعاد الى القاهرة ليموت في الفندق في نفس الليلة .....!

ومليونير أمريكي جاء وتفرج واسمه جيل ول . وأثناء عودته توفي في الباخرة ...!

أما طبيب الأشعة أرشيبالد زون الذي قطع خيوط التابوت لتصوير جثة الملك فقد أصابته الحمى وتوفي في لندن بعد أيام ...!



هوارد كارتر عالم الحفريات واللورد كارتر فون يدخلان مقبـــرة توت عنخ امون بعد اكتشافها

وزوجة اللورد توفيت سنة ١٩٢٩ والسبب: حشرة غريبة جدا قد لسعتها ...!

أما سكرتير كارتر فقد توفي أيضا في نفس اليوم ولما علم أبو السكرتير انه قد مات ، قفز من الدور السابع ومات هو أيضا ...! وأثناء سير الجنازة تسلل طفل صغير بين أقدام المشيعين ولم يره أحد فداسوه ومات ...!

ثم يتساءل المؤلف ......

ولكن بالضبط ما الذي حدث ..؟

هل هناك (لعنة) حقيقية ...؟ وما معنى كلمة لعنة ؟ ، هل هي تعويذة سحرية .. هل هناك حروف يمكن تسليطها على الناس ..؟ وهل للحروف قوة على الأشياء والناس ؟ هل للحروف «خدام» كما يقول رجال الدين وعلماء الروح ..؟ هل لهؤلاء الخدام قوة غير انسانية .. قوة شيطانية ..؟ هل هناك سموم قد أودعها المصريون مقابرهم .. هذه السموم على شكل هواء قاتل .. أو على شكل تراب .. أو أن هناك معادن لها اشعاع غريب مميت .. هل هناك طفيليات على جثث الموتى اذا لمسها الانسان مات .. ما هو بالضبط ، ومن الناحية العلمية الطبية الكيمائية السحرية المقصود باللعنة الفرعونية ..؟

ان ملوك مصر الفرعونية هم آلهتها أيضا .. وهم الآلهة لأن لديهم عددا كبيرا من العلماء .. والعلماء في خدمة الملوك .. ولذلك يظهر الملك أمام الشعب يعرف مواعيد المطر والفيضان .. ويعلن للناس ذلك .. ويكون صادقا .. ولا يقول الناس ان الملك عالم .. وانما يقولون انه اله .. لأنه علام الغيوب وغارس الحبوب ، وكاشف الكروب .. وقاهر الحروب ... وكان الكهنة والاطباء والعلماء المصريون يعرفون كثيرا جدا في الطب والفلك والكيمياء ، بل ان علمهم هو الذي لا يزال يميز العلم الحديث ، فليس عجيبا أن يهتدي علماء مصر الى أشياء لا نفهمها حتى اليوم وليست اللعنة الا شيئا

متواضعا جدا اذا قورن بما عرفه المصريون من الوف السنين ولم نعرفه الا أخيرا .. أيضا هناك لعنات أخرى سببت الكثير من الكوارث التي لا تقل عما قدمناه فمن أعجب الحوادث في العصر الحديث ما أصاب قبطان الباخرة «تيتانيك» التي اصطدمت بأحد جبال الجليد فغرقت يوم ١٤ أبريل ١٩١٢ ، وكانت أجمل وأكبر وأروع وأسرع البواخر التي ابتدعها الانسان ، وكانت الباخرة تحمل ٣٢٠٠ راكبا ماتمنهم ١٥٠٠ ، ٤٠ طن بطاطس ، ١٢ ألف زجاجة مياه معدنية ، و١٧ ألف كيس بن ، ٣٥٠ الف بيضة واعجب من ذلك انها كانت تحمل مومياء فرعونية لواحدة من الكاهنات أو احدى الأنبياء في عصر الملك أخناتون ، وكانت هذه المومياء في طريقها الى أمريكا ، وقد كان قبطان الباخرة واسمه الكابتن سميث ، قد خاف على تابوت هذه الكاهنة فوضعه بالضبط وراء غرفة القيادة ، وكانت هذه الكاهنة قد عثروا عليها في معبد في تل العمارنة اسمه «معبد العيون» وكانت صاحبة المومياء تحمل تعويذة تحت رأسها مكتوبا عليها: «انهض من سباتك يا أوزوريس فنظرة من عينيك تقضي على أعدائك الذين انتهكوا حرمتك المقدسة ...!» فلقد جن قبل غرق السفينة بيوم واحد وراح يصرخ ويقول «الأشباح ..! العفاريت ..! انني سيد هذه الجزيرة العائمة أفعل بها ما أشاء ..! ثم ما الذي جرى للمشاهير ، شامبليون وبلهارس وخروشوف وغيرهم ..؟» .

ان شامبليون العالم الفرنسي الذي فك رموز حجر رشيد له مع لعنة الفراعنة مأساة ، أو قصة من نوع غريب ، لقد قال أحد الفلكيين لأبيه قبل أن يولد: (سوف يكون لك ابن هو نور الحضارة الانسانية ..!) وبحكم مهنة الأب بائع الكتب ، فتح شامبليون الصغير عينيه على الكتب الضخمة خصوصا الكتاب المقدس ، وعندما بلغ الخامسة من عمره كان يحفظ صفحات كاملة من الانجيل قبل أن يعرف القراءة والكتابة وأشفق الأب على ابنه فأبعده عن الكتب فسرقها الطفل وأعطاها لامه وللجيران لكي يقرأوا له ، وأما أخوه الأكبر فقد كان مهتما بالآثار المصرية وتمنى لو أن نابليون قد أخذه معه الى مصر ولكن نابليون لم يفعل فانصرف الأخ الكبير الى التجارة . ولكن حزنه عميق وفي يوم اشترى نسخة من مجلة تصدرها الحملة الفرنسية في مصر وفي هذه المجلة سطور تقول : أن الحملة الفرنسية قد اكتشفت حجرا

عند رشيد والحجر مكتوب بثلاث لغات: الهيروغليفية والقبطية واليونانية . وبعث لأخيه بهذه المجلة وكان شامبليون الصغير في التاسعة من عمره . وأرسل الأخ الأكبر خطابا لأخيه الصغير يقول له فيه: لعلك تنجح حيث فشلت انا ...!

وحاول الطفل فك رموز هذا الحجر وظل عاكفا على هذه المعضلة اللغوية التاريخية واحدا وعشرين عاما ...!

وفي سنة ١٨٠٧ راح يدرس اللغة القبطية .. واهتدى الى ان النص اليوناني المنقوش على الحجر يضم ٤٨٦ كلمة يونانية ١٤١٩ كلمة هيروغليفية ...

وطلب شامبليون عشرات من النقوش الموجودة على المسلات الفرعونية في عصور محددة لعله عن طريق معرفة اسم «كليوباتره» أن يهتدي الى بقية حروف الهجاء ...!

وفي يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٢ اهتدى الى اسمين آخرين هما: رمسيس وتحتمس ثم راح يضع أمامه تفسير الحروف والكلمات كلها . واذا به يقف على المنضدة صارخا: وجدتها .. وجدتها ...! ثم يسقط على الارض في حالة اغماء لمدة خمسة أيام وبعد أن افاق سافر الى مصر على رأس بعثة أثرية ليتحقق من هذا الاكتشاف العظيم الذي اهتدى اليه وعند عودته من مصر أصيب شامبليون بالشلل وبعد ذلك بالهذيان التام ...! وبالاغماء الطويل ليموت وهو لم يكمل بعد الثانية والأربعين ...!

أما بلهارس الطبيب الالماني النابه الذي اكتشف تلك الدودة الغريبة في احدى الجثث الفرعونية والتي تصيب ضحاياها بالارهاق وفقر الدم فقد أصيب بالهذيان لمدة خمسة عشرة يوما انتهت بالوفاة ولم يعرف الأطباء الذين أشرفوا على علاجه كنه هذا المرض الذي أصابه ...!

ولعل تلك الاحداث الجسيمة هي التي حملت الحزب الشيوعي السوفيتي أن يبعث الى خروتشوف من موسكو عندما زار مصر ١٩٦٤ ببرقية عاجلة

تقول: ننصح بشدة عدم دخول الهرم الأكبر ولم يدخل خروتشوف الهرم الأكبر ولم تقدم موسكو تفسيرا لذلك ...!

هذا وبرغم الضجة التي اثارها توت عنخ امون في كل أرجاء العالم الا أن المؤرخين يتفقون على عدم أهميته من الناحية التاريخية ربما لانـــه عاش فترة قصيرة في الحكم او ربما لأنه عاصر ثورة مضادة للاتجاه الديني آنذاك ، وانما يرون ان شهرته قائمة على تلك اللعنة التي أسلفنا ذكرها والتي أوردوا لها أسبابا ربما كان أحدها أو كلها مجتمعة وراءها وهي :

١ ـــ الصدفة التي يرى البعض أنها وراء ما حاق بالباحثين والمنقبين وهي أمر مستبعد تماما ، اذ ليس من المعقول أن تطيح الصدفة بباحث في مصر وسكرتير له في لندن ووالد هذا السكرتير وطفلا مـــن الجيران في لحظات سريعة متلاحقة بل تصيب ممول المشروع أو الاكتشاف فيصرخ من الحمى مرددا نتائج التحذيرات المكتوبة على التماثيل ...! ايضا تكون السبب في غرق أكبر وأجمل باخرة في العالـــم واصابـــة ربانها بالجنون الذي أصاب علماء الحفريات فخرجوا عراة في الشوارع وعلى رأس كل منهم تاج مينا موحد القطرين ......!

٢ ـــ وجود قوة خفية وراء الكلمات أو التحذيرات المنقوشة على التماثيل ..

٣ ـــ وجود قوة من الاشعاع الذري تحطم كل من يحوم حول آثار الملوك أوالأمراء . يؤيد هذا الرأي ما أعلنه بولجاريني عالم الذرة الكبير من أن الفراعنة قد عرفوا جيدا قوانين التفكك الذري وأنهم ربما غطوا أرضية مقابرهم وجدرانها بالأحجار المشعة ....

٤ ـــ السموم التي برعوا في انتاجها وتصديرها الى دول كثيرة .

٥ ـــ الهواء الفاسد الموجود في المقابر والذي تسمم بفعل البكتيريا التي تكونت في أجسام الموتى ...

٦ ـــ وجود غازات أو تفاعلات كيميائية أطلقها الكهنة في قبور الموتى حماية

لمقتنياتها من العبث بأيدي اللصوص أو الاشقياء .. هذا ويبدو لنــا ان الرأي الاخير أقرب الى المعقول اذا علمنا أن الفراعنة قد عرفوا عددا هائلا من العقاقير والتفاعلات الكيماوية ، بل انهم قد وضعوا أيديهم على أسرار المواد المختلفة . يؤيد هذا الرأي كذلك أن الكهنة كانـــوا هم العلماء والمنجمين والصيـــادلة والأطباء وانهم قد توصلوا الى تشخيص الامراض ووصف الدواء علاوة على العديد مـــن الوصفات الطبية الغريبة كاستخدام دم البرص في علاج الجروح ، ولبن الحامل في التهاب العين والفئران المسلوقة وجلود الأحذية المحروقة في علاج العديد من الأمراض المستعصية بل انهم أول من ابتكر الحقنة الشرجية التي استوحوا فكرتها من وضع أبو قردان منقاره في مؤخرته بعد ملئه بالماء وتكرار ذلك عدة مرات عندما يصاب بالامساك فالكاهن «هو الشافي والمعافي وفرحة الدنيا للأحياء والأموات جميعا ...!» .



الكنيسة المعلّقة "١"

عصافير الكنيسة :

ربما كانت المرة الأولى التي سمعت فيها عصافيرا تبكي ، ذلك انني عندما اصطحبت المصور في صبيحة أحد أيام الآحاد لأقتفي هذا الأثر الجميل الذي يبدو للوهلة لأولى كقصر معلق في الهواء راعني بكاء تلك العصافير ورجاءها وابتهالاتها ، والأعجب انني سمعت من يدربها على البكاء لكي تبكي بصوت حسن ...!

كانت العصافير الباكية «تقول»:

ازموا أبكلوم أنتيستي روم بي — تين تيك ميت أخرستوس
أبشوش نياور آونيم لى مومي — نتيم ني سيتي ينم ني كاربوس

ولم يكونوا سوى مجموعة من الأطفال لم تتجاوز أعمارهم السابعة وقد تواروا خلف أحد الأحجبة مرددين ترانيم ربما لا يفهمونها جيدا ولكنها على الارجح (سوف تصعد الى السماء) وستصير جزءا من حياتهم عندما يشبون عن الطوق حتى يلقون الرب في السموات .. والترنيمة (الغريبة) عبارة عن نشيد ، ومعنى النشيد القبطي بالعربية هو:

بارك اكليل السنة بصلاحك يا رب — الأنهار والعيون والزرع والثمار

---

(١) كنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعلقة وهي من مجموعة اثار مصر القديمة .

ويفرغ النشيد ونهيج الذكرى الاليمة ــ ذكـــرى النيروز ــ فنصعد الزفرات وتنطلق الحناجر الصغيرة كأنها نغمـــات من مزامير داود ولكن بالعربية هذه المرة:

النيروز ذكرى الشهداء　　　الأبرار الأوفيـــاء

عابثين بسلام مع فادينا (١)

فيا ترى من هم «شهداء النيروز» ..

وما الذي جرى لهم من فظائع حتى يبكي عليهم أطفال ربما كانوا من سلالة احفاد أحفادهم ......!!

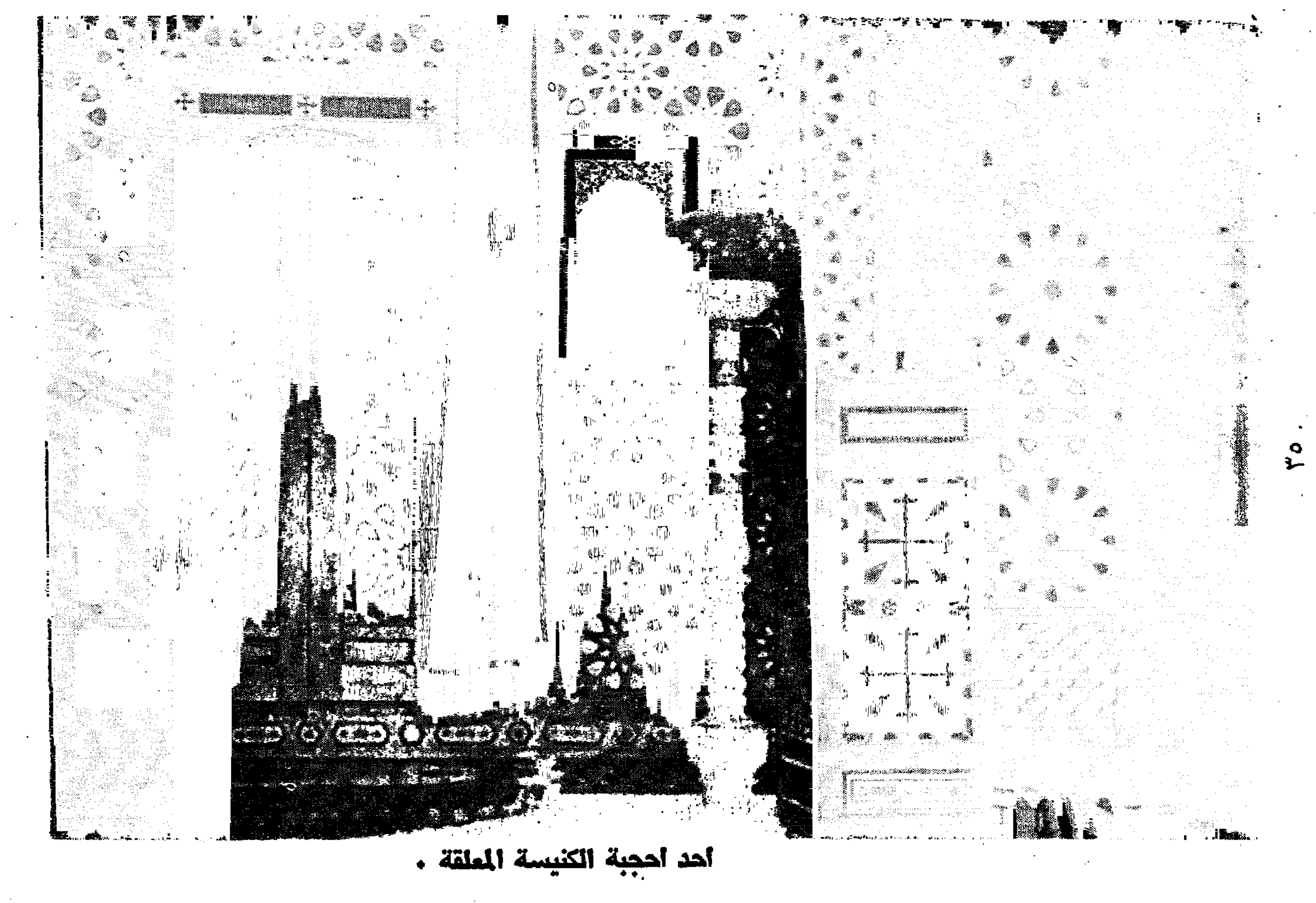
تقول الرواية المسيحية: أن النيروز هو بداية السنة القبطية حيث بدأ تاريخ تلك السنة من بداية هذا اليوم وذلك عندما بلغ التنكيل بالمسيحيين اشده على يد الوثنيين الرومان ، ان التاريخ يحدثنا عن سلسلة من العذابات ارتكبها هؤلاء في حق المسيحيين كتقطيع الأوصال وكي الأجساد وسلخ الجلود ، الا أن هذه وتلك لا تعدل ما حدث في هذا اليوم الذي بسيق فيه الآلاف مقيدين بالسلاسل الى مسرح روماني كبير تجمع في مدرجاته عشرات الألوف من عبدة الأوثان ليشاهدوا أناسا أبرياء جوعوا الأسود لتفترسهم وتقطع أوصالهم ان بقي لهم أوصال ..

وافترست الأسود الآلاف المؤلفة وصفق الوثنيون وطربوا وتسلوا بمنظر أتاحه لهم أمام الكفر «نيرون» أظلم رجل في التاريخ ...

فالنيروز اذن هو ذلك اليوم المشهود الذي أزهقت فيه أرواح شهداء المسيحية الأوائل الذين أوفوا بعهدهم أمام الله بأنهم سيبذلون أرواحهم فداء الايمان به وانهم جزاء برهم بوعدهم صعدوا الى السماء ليبقوا بجواره الى يوم الدين .

---

(١) كلمة فادينا يقصد بها الله سبحانه وتعالى ...



أحد أحجبة الكنيسة المعلقة .

والان وبعد هذه الرحلة في احد احجبة الكنيسة، تعالوا معا لنعرف شيئا عن الكنيسة ذاتها

وصف الكنيسة:

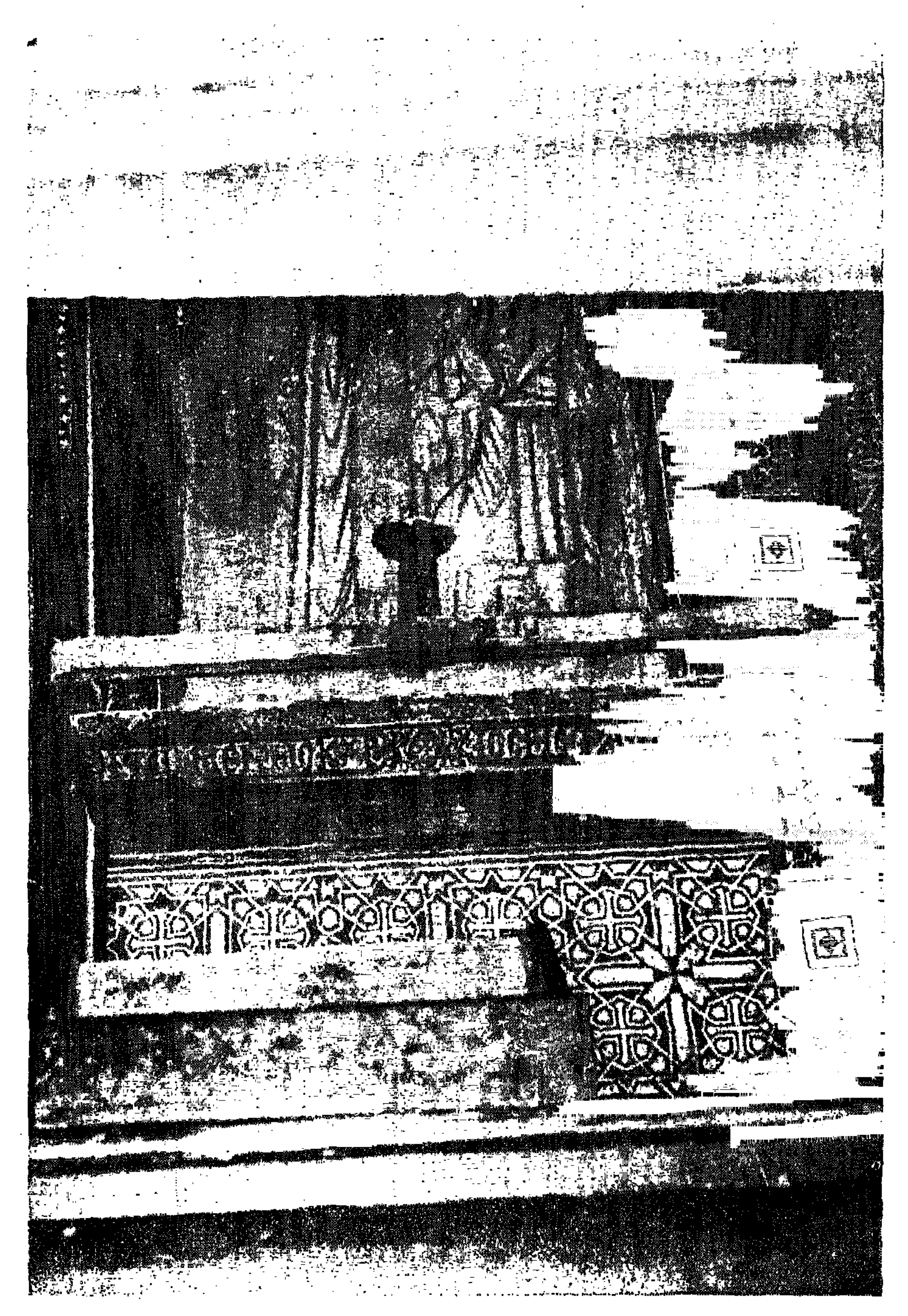
بنيت الكنيسة المعلقة في اواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس الميلادي على ثلاثة من أعمدة الحصن الروماني الذي ما زالت أطلاله باقيـة الى الآن ، وذلك بأن غطيت هذه الاعمدة بالجريد والأخشاب ، ثم بدأ في اقامة الحوائط والأعمدة التي أخذت من الحصن الروماني ذاته ، والكنيسة المعلقة هي الكنيسة الوحيدة من كنائس مصر التي تمتاز بتعدد القباب نظرا لأنها بازيلكية الطراز . وسقفها عبارة عن جمالونات مقامة على الأعمدة الرومانية سالفة الذكر .. ولقد تهدم سقف الكنيسة مرتين متتاليتين في القرنين ١٣ ، ١٧ ثم أعيد بناؤها حسب الطراز الأصلي القديم ، الا أن اعادة هذا البناء قد تمت بمواد مختلفة وكانت تعتمد اساسا على الأخشاب التي تم استيرادها في ذلك الوقت

اقسام الكنيسة:

تنقسم الكنيسة من الداخل الى ثلاثة اقسام:

أ ـــ القسم الجنوبي: وهو عبارة عن جزء من صحن الكنيسة وينفصل عن بقية الصحن بواسطة ٨ أعمدة رخامية ويوجد به هيكل تكلا هيمانوت الحبشي والمعمودية المنحوتة من الرخام الوردي التي يوضع بها ماء مصلى عليه لغطاس المواليد وذلك بعد مضي ٨١ يوما على ميلاد البنت و٤٠ يوما على ميلاد الولد .

ب ـــ صحن الكنيسة: وينقسم الى قسمين الأيمن منه مخصص للرجـال والأيسر للسيدات والآنسات (الحريم) يفصل بينهما حاجز خشبي من طراز الارابيسك وفقا للعرف السائد في القديم ، كما يوجد به المنبـر الأنبل وهو عبارة عن منبر من الرخام يرتكز على ١٥ عمود ، اثنان ملتصقان بجسمه والثلاث عشر الباقية منفصلة عنه ولقد استعمل



تابوت يحوي رفات (القديس) يعقوب المقطع

للخطابة في الماضي أما الآن فقد حلت محله المنجليات ويعد من القطع الفنية النادرة بنقوشه الجميلة البارزة ودقة الحفر وجمـــال وروعة الصور المرسومة عليه .. ونظرا لأن الكنيسة استخدمت كمقر بابوي من القرن الحادي عشر الى القرن الثالث عشر فقد دفنت تحته بعض التوابيت التي تحتوي رفات بعض البطاركة مثل الأنبا أبرام الرياني والبابا خرستود دلوسي وكان ترتيبه السادس والستين في سلسلة الأباء البطاركة . كما توجد به بعض المنجليات التي تستخدم للقراءات المقدسة والوعظ بدلا من المنبر الأنبل كما أسلفنا . اما المقاعد فهي عبارة عن دكك من الخشب طراز الأرابيسك ومازالت محتفظة بطابعها الأثري ، كما يوجد به (الصحن) ثلاثة هياكل أهمها هيكل السيدة العذراء ومذبح دقيق الصنع تعلوه قبة خشبية تقوم على أربعة أعمدة فريدة من الرخام اللامع المضلع وقد زخرفت القبة من الداخل والخارج بصور جميلة ملونة منها ما يمثل السيد المسيح الجالس على العرش تحوطه المخلوقات الأربعة والشاروبيم والكاوربيم والملائكة ، أيضا زينت أركان القبة النهائية بالرسوم الملونة وكذا العوارض الخشبية تبدو لها زخارف بالنقوش والنصوص القبطية كما يوجد أمام المذبح مكان لجلوس رجال الكهنوت وهو عبارة عن درجات في شكل نصف دائرية مكسوة بقطع الرخام الملون وعددها ستة وفي نهايتها العليا فجوة أشبه بالقبلة في وسط الجدار الحائطي ويوضع فيه العرش الخاص بالرئيس الاعلى لرجال الكهنوت. وجدير بالذكــر أن الكنيسة المعلقة تشتهر بأنها الكنيسة ذات الأحجبة(١) (سبعة أحجبة) واهمها حجاب هيكل السيدة العذراء وحجاب هيكل القديس يوحنا المعمدان وحجاب هيكل تكلا هيمانوت الحبشي الذي نادى بربط كنيسة أثيوبيا بامها كنيسة الاسكندرية في معاهدة سنة ١٢٦٨ م والتي أشار فيها على الملك (تكعو لو لعب) بتنازله عن العرش للأمير «يكونوا ملك» وقد جاء ضمن بنودها: أن يكون رئيس أساقفة أثيوبيا راهبا مصريا

(١) الحجاب عبارة عن غلاف من الخشب النادر المطعم يستعمل كغلاف لمداخل الكنيسة او هياكل القديسين .

وأن يكون ثلثميزانية اثيوبيا لرئيس الاساقفةالذي كان يطلق عليه اسم «أبونا» للصرف منها على الكنائس والاديرة والرهبان ، كما من بنودها الا يرسم أثيوبيا رئيسا لاساقفة أثيوبيا وبهذا تأكدت القاعدة بأن يكون رئيس أساقفة أثيوبيا راهبا مصريا. وكانت هذه الاشارة وهذه التوصية للملك من القديس هيمانوت اعترافا منه بفضل المصريين الذين ادخلوا الديانة المسيحية في بلاده عن طريق القديس فرمنيتوس الدي أقامـــه القديس أثناسيوس الرسولي بابا الاسكندرية أسقفا على الحبشة سنة ٣٤٠م ، ومنذ ذلك الحين ظلت الكنيسة الأثيوبية تابعة لكرسي مار مرقص الرسول .

د ـ الجزء الشمالي: ويوجد به بعض الأيقونات (الصور الزيتية التاريخية) واهمها ايقونة القديسة دميانة والأربعين عذراء حولها كما سيجيء .

* * *

ـ الأيقونات ـ

تحتوي الكنيسة على مجموعة نادرة من الايقونات سواء من حيث القدم التاريخي أو الناحية الفنية الجمالية ويقدر عددها بحوالي مائة وعشرة ويتراوح تاريخها من منتصف القرن العاشر حتى منتصف القرن الثامن عشر عدا أيقونة «السيدة العذراء تحمل السيد المسيح» التي رسمت منذ ١٥٠٠ عام . وأغلب الايقونات موضحا بها تاريخ «صناعتها» حسب التقويم القبطي الذي بدأ بعد انتهاء عصر الاضطهاد الروماني للمسيحية أي في نهاية القرن الثالث الميلادي عقب تولي الامبراطور قسطنطين الحكم في مصر والذي أعلن ان اللغة القبطية هي اللغة الرسمية للبلاد ، وكذا الديانـــة المسيحية هـــي الديانـــة الرسمية للدولـــة ...

اهم الأيقونات:

١ ــ أيقونة القديسة دميانة والأربعين عذراء حولها:

ولدت (القديسة) دميانة في أواخر القرن الثالث الميلادي في زمن الملك دقلديانوس الوثني واحتملت كثيرا من العذابات منها على سبيل المثال ..

أ ــ عصر جسدها بين فكي الهمبازين ...

ب ــ تمشيط جسدها بالآلات الحادة ...

جـ ــ تدليك جسدها بالخل والجير ...

د ــ ضربها بمرزبات من الحديد ...

هـ ــ وضعها في الزيت المغلي ...

و ــ قلع عينيها وسلخ جلد رأسها ...

ز ــ ربطها بين أربعة أوتاد وتقطيع أجزاء من جسدها والقاؤها للوحوش ...

هذا وتؤكد الرواية المسيحية انه «......ومع كل ذلك كان الرب يشفيها ويقيمها ويصير الوحوش اليفة لها فآمن بالسيد المسيح بسبب عذاباتها الكثيرة التي كان يشددها فيها ويقويها ثم يقيمها ويشفيها عريسها المسيح ألاف من الوثنيين ، فلما لم يفلح معذبيها وتكاثر عدد المؤمنين «بالسيد» من الوثنيين بسبب قوة ايمانها أمر الملك بقطع رأسها مع الاربعين عذراء فنلن جميعا أكاليل الشهادة» .

أيقونة مار جرجس:

ولد « الشهيد القديس » مار جرجس في نهاية القرن الثالث الميلادي من والدين صالحين ومات والده وهو في سن الرابعة عشرة ، وقد نما في الفضيلة والاداب وانخرط في سلك الجندية وترقى بعد مدة قصيرة الى قائد فرقة ثم رقي

الى وزير عن طريق الامبراطور دقلويانوس وكانت والدته مسيحية وهو في سن العشرين في الوقت الذي اصدر فيه الامبراطور امرا ضد المسيحية فتوجه اليه للدفاع عنهم قائلا له: انت ايها الملك تبرز شرائع وتصب غضبك على المسيحيين الأبرار وتضطهدهم وتغضب الذين عرفوا الايمان الحقيقي على ان يتبعوا الديانة التي انت في شك منها لأنها غير حقيقية ، فان الأصنام ليست آلهة فلا تخدع ذاتك .. فلما سمع منه الامبراطور ذلك غضب عليه غضبا شديدا ، ولما لم يرضخ لاغرائه ووعيده أمر بتعذيبه بيد انه كان كلما زاد في تعذيبه زاد عدد المؤمنين بالسيد المسيح من الوثنيين حتى ان ابنة الامبراطور وزوجته قد امنتا فاستشاط غضبا وأمر بقطع رقبته ورقبة زوجته وابنته وكان استشهادهم في عام ٣٠٣ ميلادية ..

أيقونة أبي نفر السائح :

وتمثل ابي نفر والى جواره النخلة التي كان يقتات من ثمرها وقد عاش في زمن القديس بفنتيوس تلميذ القديس مكاريوس .

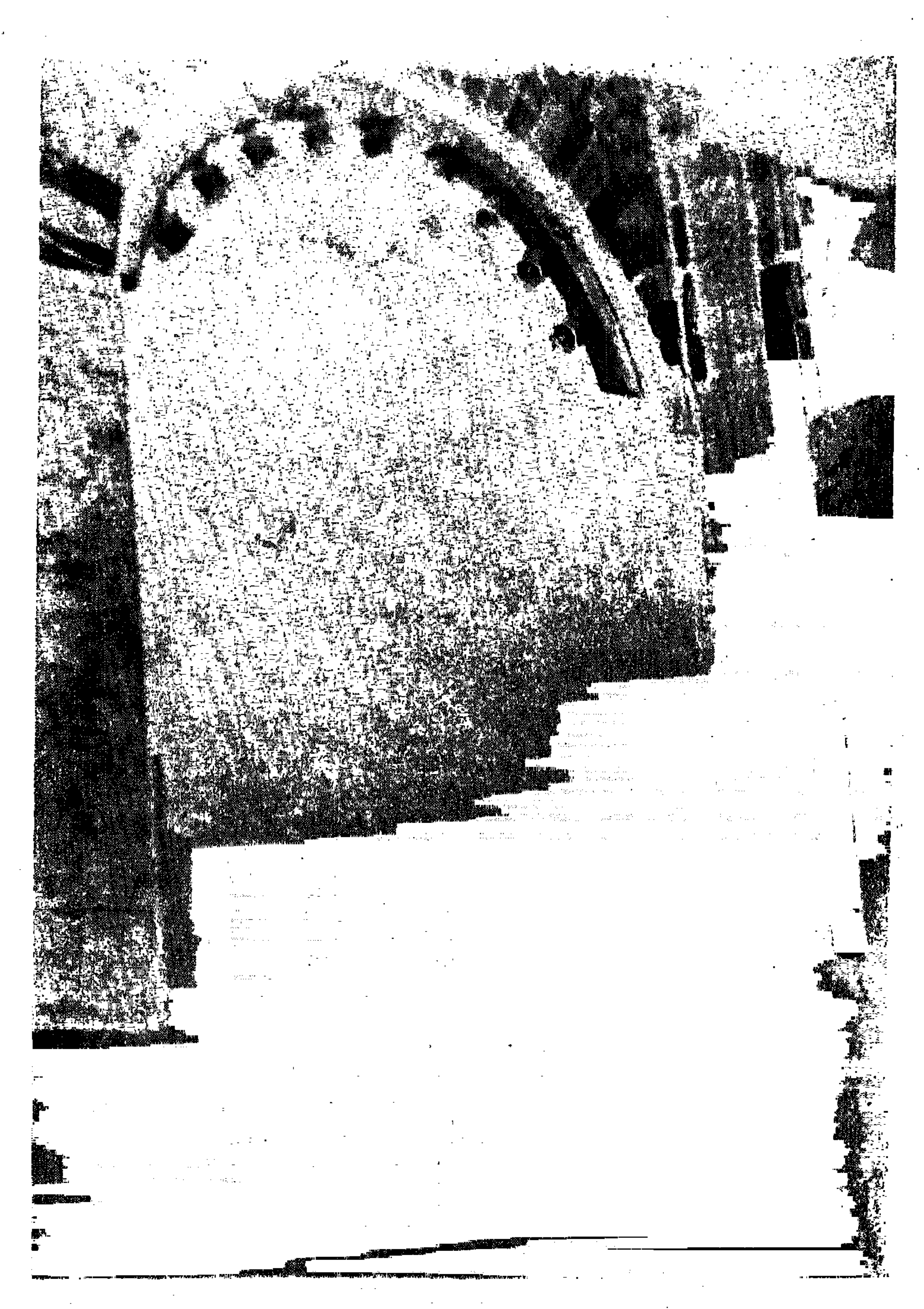
أيقونة السيدة العذراء تحمل السيد المسيح :

وهي أهم واقدم لوحة موجودة في الكنيسة «صنعت منذ ١٥٠٠ عام» وقد تم رسم عيني السيدة العذراء بطريقة تنظر بهما الى المشاهد في اي مكان يقف فيه ...!

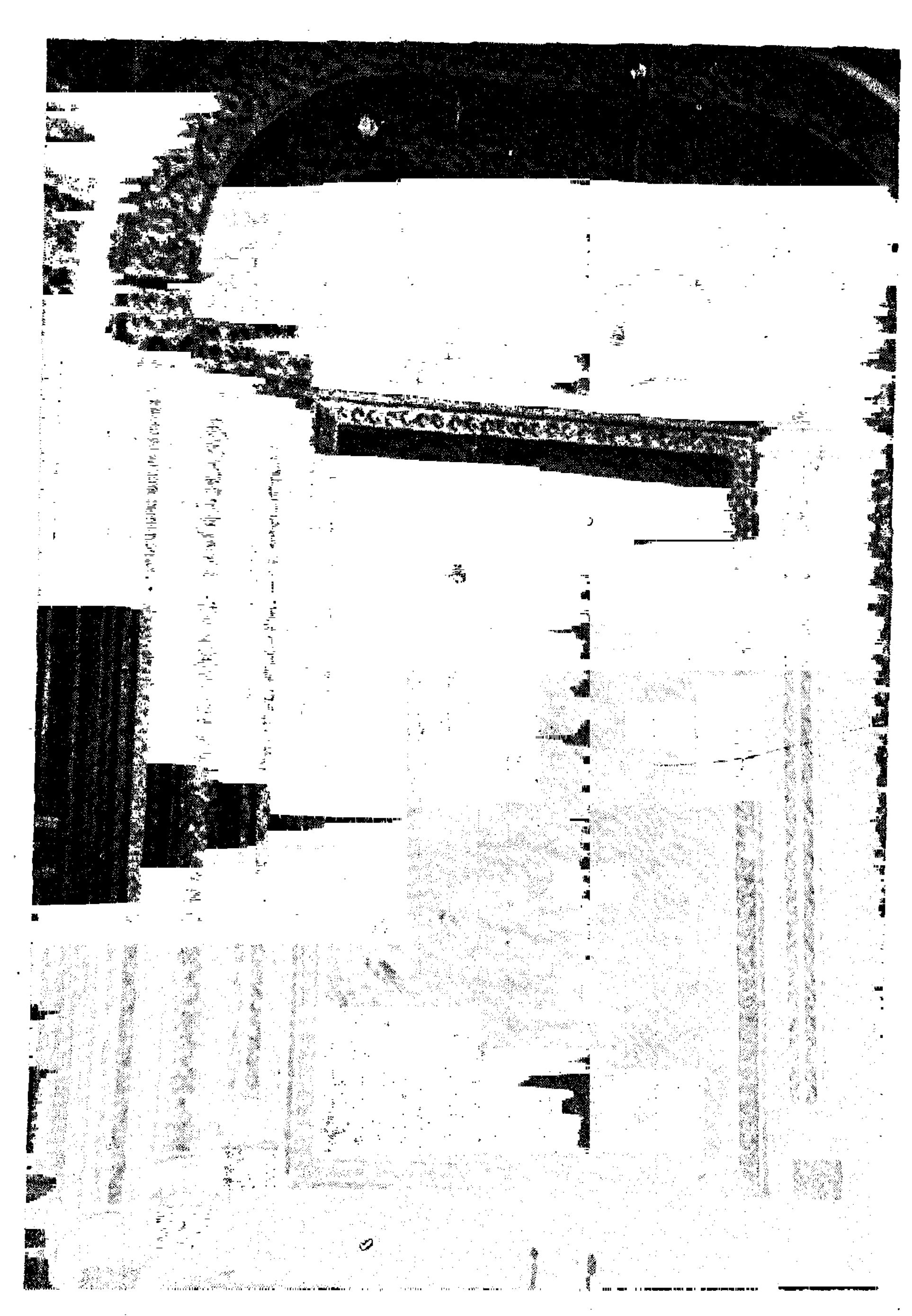
أيقونة القديس الشهيد يعقوب المقطع :

ولد في كبادكية في نهاية القرن الرابع واستشهد بعد ان عذب كثيرا على يد رجال ملك الفرس ، وقد سمي المقطع بسبب تقطيع جميع اعضائه اثناء التعذيب ...!!

* * *



معمودية الكنيسة المعلقة وقـــد نحتت من الرخام الوردي لغطـــاس المواليد من الجنسين



أيقونة السيدة العذراء تحمـــل السيد المسيح (٩٠٠ سنة)

أهم الأحداث التي لازمت الكنيسة:

* أجمع المؤرخون على أن الكنيسة المعلقة هي أقدم الكنائس التي أقيمت فيها الشعائر الدينية في العالم .
* نقل اليها الكرسي البطريركي من الاسكندرية في أوائل القرن الحادي عشر في عهد البابا خرستو دلوس البطريرك الـ٦٦ وقد ظلت مقرا للكرسي البابوي حتى القرن ١٤ حيث نقل بعد ذلك الى كنيسة أبي سفين .
* ان كنيسة الملاك ميخائيل التي باعها الانبا خائيل الـ ٥٦ لدفع الجزية الكبيرة التي طلبها منه أحمد بن طولون كانت تتبع الكنيسة المعلقة وصارت معبدا لليهود .
* أن العائلة المقدسة (السيدة العذراء والسيد المسيح ويوسف النجار) قد تغذت من ثمار أشجار النخيل الموجودة بها عندما حلت بأرض الكنانة .
* ترى الرواية المسيحية أن بتلك الكنيسة تجلت السيدة العذراء للأنبا أبرام بن زرعة تأمره بالانتقال الى جبل المقطم ليلتقي هناك برجل يدعى سمعان الخراز فيأمره بنقل الجبل وذلك عندما طلب الخليفة المعز لدين الله الفاطمي منه نقله عملا بما جاء في الانجيل «لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل ، انتقل من هنا الى هناك فينتقل ..» فما أن أمر الخراز الجبل بالانتقال امتثالا لأمر الانبا حتى حدثت له زلزلة وتشقق شديدين وانتقل في الحال ...

حصن بابليون

وهو حصن قديم بناه الرومان سنة ٣٠ قبل الميلاد عندما كانوا يحتلون البلاد ويعتبر واحدا من الأربعين حصنا التي أقيمت لحماية (مدينة الفسطاط) من الغزوات الخارجية الا أن عمرو بن العاص استطاع الوصول اليه ومحاصرته والاستيلاء عليه واليوم لايرى الرائي منه سوى أطلال تتكون من سور دائري كبير به عدة غرف ونوافذ متهدمة من طابقين بجوائطهما اثرا للسهام والنبال التي تبدو هنا وهناك من جراء المعركة الهائلة التي دارت بين الفريقين ...



حصن بابليون التاريخي المجـــاور للمعبد اليهودي



معبد سيدنا موسى عليه السلام "١"
"المعبد اليهودي"

.. ان لأية قصة بداية واحدة ولقصة هذا المعبد أكثر من بداية ، فأقباط مصر لا يشكون لحظة في أن تلك البقعة ملك لهم من دون اليهود .. الارض وما عليها من مبان ، لانها اصلا (كنيسة الملاك ميخائيل) الواقعـة في قلب الأديرة والكنائس المصرية ، وبرغم أن القضاء قد قال كلمته في النزاع الذي احتدم طويلا بين الفريقين فحكم للطائفة الاسرائلية بملكية المعبد ، الا أن كثيرا من المسيحيين يحملون الشموع ويقتحمونه عنوة ، فاذا اعترضهم خادم المعبد اليهودي رجموه بالطوب والحجارة واشتبكوا معه في صراع دام ...!!

اننا قبل أن نستطرد في الحديث عن اللعبة الغريبة التي استولى بها اليهود على هذا «الحصن الديني» نود أن نؤكد أن تلك البقعة أن هي الا ملك خالص لأقباط مصر ، بنوا فيها حصونهم وأديرتهم وكنائسهم ، حتى المغارة التي اختبأ بها السيد المسيح لاتزال قائمة الى اليوم فيما يعرف بكنيسة القديس سرجيوس الشهيرة بأبي سرجة ، هذا ولئن تعرض المسيحيون لضغوط مختلفة ـــ عبر التاريخ ـــ فان تلك الجزية الباهظة التي فرضها أحمد بن طولون عليهم في عهد البابا خائيل الـ٥٦ قد كانت السبب المباشر في استيلاء الطائفة الاسرائيلية على « كنيسة الملاك ميخائيل » ...!

لقد كانت الجزية كيلة من الذهب أو كيلة مملوءة ذهبا ، فلم يكن هنـاك بد والحالة هذه من أن تؤجر الكنيسة الى اليهود لمدة يستردونها بعدها ، ولكنهم لم يدروا أن تلك المدة ستطول وتطول وترتفع (نجمة داود) في كل



الهيكل الرئيسي لمعبد سيدنـــــا وسى

الأركان ....!!

التجارة شطارة ...!

قد تقول معي تلك العبارة «التجارة شطارة» .....!

فالتاجر المصري شاطر ، والسوري شاطر وزميلهما في هونج كونج أشطر ، لكن هؤلاء يعدون صبية اذا قيسوا بأخيهم من بني يهوذا ......!! فهو كما تدل تلك الرواية أو القصة التاريخية يفعل اللامعقول ويقنعك بأنه معقول ...! أو يأكلك الأرز بملعقة من صفيح ويقنعك بأنها من البلاتين ...! تماما كما (يعزمك) على فخذ خنزير ويقنعك بأنه «كوشير»(١) ...!

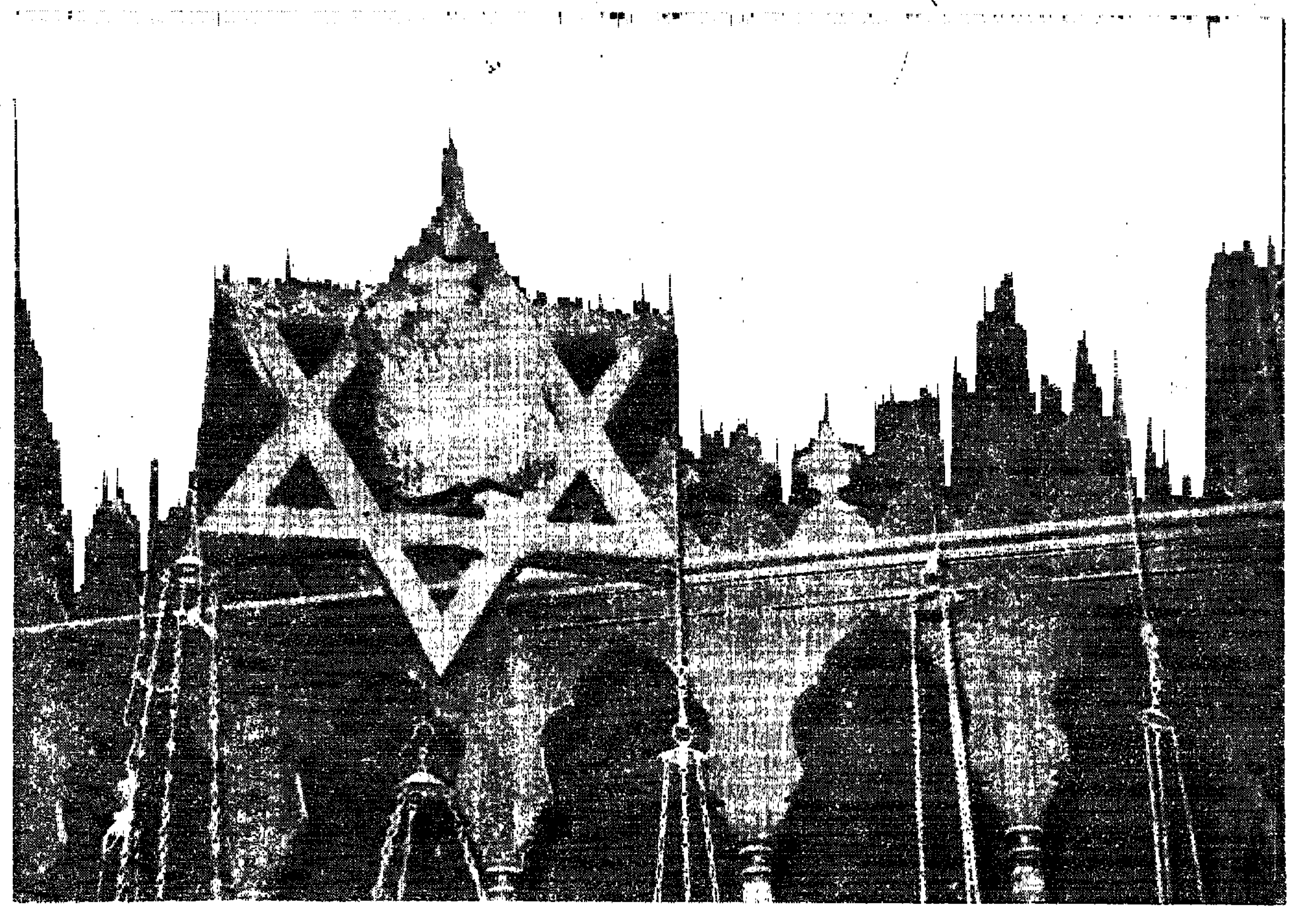
لقد استأجر اليهود كما قلنا كنيسة الملاك ميخائيل من البابا وهو أمر غريب .. غريب أن يؤجر أهل ملة بيتا دينيا لهم ، أو دارا للعبادة مهما بلغت قسوة الظروف .. لكن الأغرب ذلك العقد الايجاري الفريد الذي كتبت عباراته أو حفرت على «شريحة نخل» باللغتين العبرية والعربية «بالخط الكوفي» ، بل مما يثير الدهشة أن ينص في العقد على أن : تؤجر الكنيسة لمدة مائة سنة تبدأ من سنة وتنتهي في مائة سنة ....!! فما هي تلك السنة التي يبدأ فيها سريان العقد حتى تكون للمائة سنة نهاية ....!!؟ لا أحد يدري ، حتى البابا نفسه أحد طرفي العقد أو الاتفاق ....!!!

الخروج من الحمام ..!

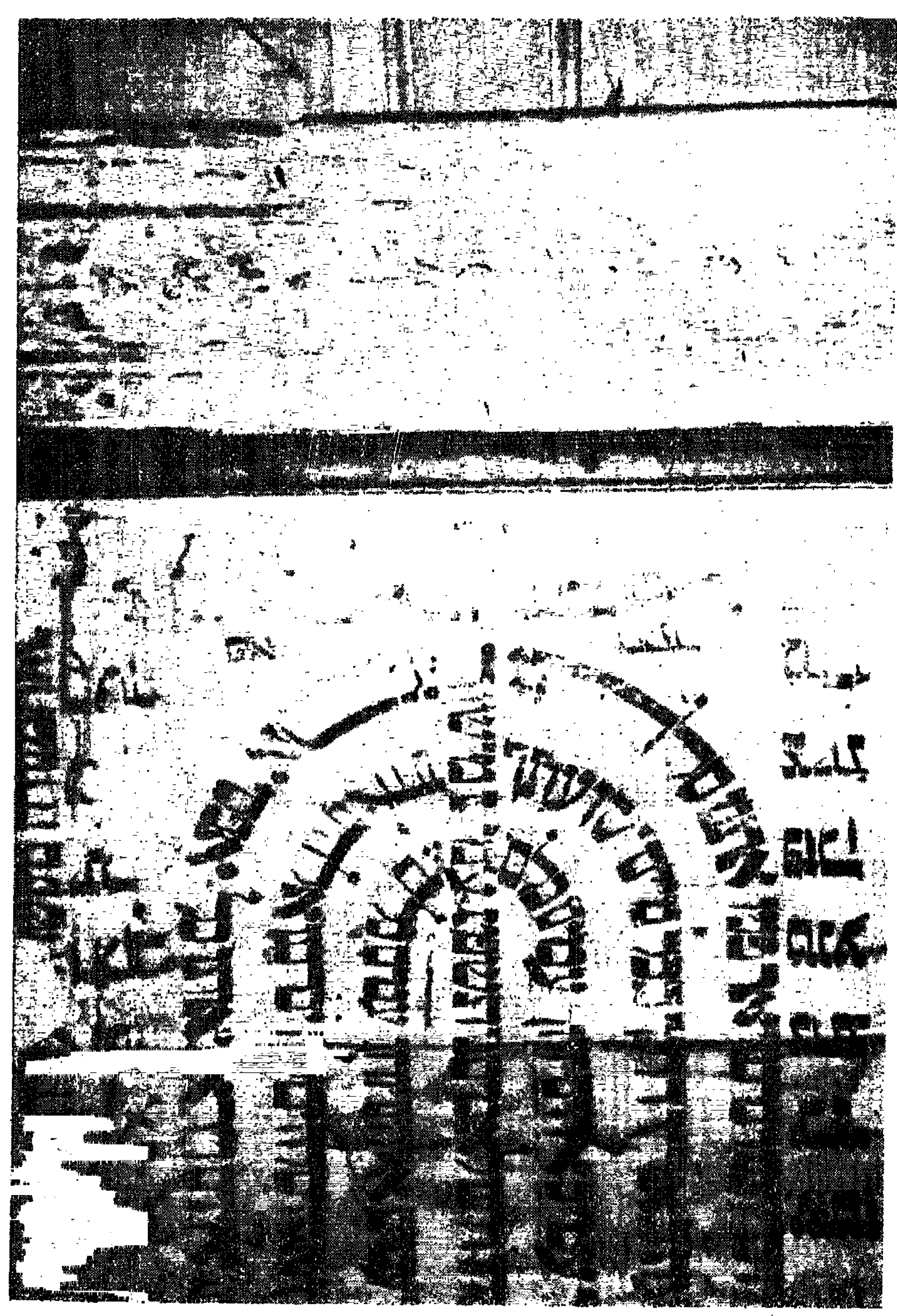
مرت السنوات العجاف على الاخوة الأقباط وأبدلها الرب بأخرى سمان فرغبوا في وفاء الدين واسترداد الكنيسة ، بيد انهم لم يدروا ان الخروج من الحمام ليس كمثل الدخول فيه ..! بل انه حمام يهودي ، قطراته كالنفط المشتعل وماؤه كالسعير المذاب ...! في البداية زعم اليهود ان المدة

---

(١) كلمة كوشير بالعبرية تعني لحم ظأن صغير .



نجمة داود تتدلى من سقف المعبد . اليهودي (معبد سيدنا موسى عليه السلام)



أغرب عقد في التاريخ
شريحة النخل أو (الحجة) التي تم الاتفاق بمقتضاها على تأجيـــر
كنيسة الملاك ميخائيل لليهود

لم تنته ، فذكرهم هؤلاء ان هذه قد مضى عليها قرون لكنهم لم يجدوا اذانا صاغية ..!

الى المحكمة:

هلموا الى المحكمة .. القضاء — القضاء ..! كلمات رددها المسيحيون كأنها هتافات في مظاهر قومية .. لكن القانون هو القانون .. المسيحيون أصحاب حق .. نعم .. لكنهم لا يحملون دليلا يؤيده ..! فقط ما يطمئنهم ترؤس بطرس غالي الوزارة .. لكن هل يستطيع «بطرس غالي» أن يكسب الجولة وحده ..!!؟

* * *

طال الأخذ والرد أمام القضاء ، شهود اثبات وشهود نفي .. أبحاث ودراسات ..... احضار الحاخام والبابا للادلاء بالأقوال ... استدعاء شيخ الأزهر للشهادة .....! كل هذا وهم على ثقة من كسب للدعوى ، بل بلغت الثقة بهم حدا جعلهم يوقفون جوقة من عازفي المزمار والطبل البلــدي أمام المحكمة .. في انتظار النطق بالحكم ..!! (لكن من التفاؤل ما قتل ..!) ففي الوقت الذي كان المسيحيون ينظمون فيه الهتافات ويؤلفون الأغاني والأهازيج كان خصومهم من اليهود يعملون في صمت ، فلقد اجتمع قطاوي باشا وزير المالية اليهودي في وزارة بطرس غالي بأفراد الطائفة الاسرائيلية وأخذ يبحث معهم المسألة .. قطاوي باشا كما قلنا يهودي ، والاجتماع حافل بالوجهاء ، وكل له راي ، فمن قائل «ان المعهد لم يكن كنيسة كما — يزعم — الأقباط لأن اليهود لم يقطعوا الصلة بمصر بعد رحيلهم مع سيدنا موسى ، بل عادوا بعد قرون في قوافل للتجارة كانت تحط رحالها في منطقة (اثر النبي) واشتروا لهم أرضا تبدأ من القلعة حتى مصر القديمة ، ومن ثم بنوا لهم معابد من بينها هذا المعبد الذي بناه (ابراهيم بن عذرا) منذ ٩٠٠ سنة » .

ومن قائل: «ان المعبد قد اتخذه (موسى) لعبادة الله في صدر شبابه قبل رحيله الى أرض مدين ونزول الوحي عليه ، يدل على ذلك وجود معبد

قديم أسفل معبد ابراهيم بن عذرا ، ولما كان الأجداد يعرفون القصة فانهم قد اختاروا تلك البقعة بالذات لبناء معبد لهم عليها وأسموه معبد سيدنا موسى نسبة الى — المعبد القديم — **الذي لا زال قائما الى اليوم ...!** » .

كل هذا معقول .. ولكن أين الدليل ..!!؟

قالها قطاوي باشا وهو يزفر في يأس معلنا فض الاجتماع ، لولا أن اقتحم الحجرة يهودي بسيط يعرفونه جيدا ، انه خادم المعبد المذكور ..!

كان يبدو على الرجل وكأنه قد جاء عدوا من مسافة بعيدة ، فهو يلهث ويقول كلمات متقطعة ..!!أنصت اليهود جيدا لكلماته ثم أخذوا يتصايحون في فرح وذهول كسبنا القضية ....!! كسبنا القضية ..!

كان الخادم يقول لهم من خلال أنفاسه المتقطعة: لقد عثرت على «الحجة» التي اشترى بها أجدادنا الكنيسة من البابا وكذا «الكيلة» التي كيل بها الذهب للأقباط ..!! وفي الحال أمر قطاوي باشا بنقل الحجة «شريحة النخل» والكيلة على عربة كارو الى مكان الاجتماع . وكانت المفاجأة ..! المحكمة تصدر حكمها للطائفة الاسرائيلية ..! أفراد الجوقة يتشاجرون مع الأقباط يريدون الأجر ، وهؤلاء يسبونهم لاعنين وجوههم النحس ..! لكن اليهود يغتنمون الفرصة فيحولون الفرقة لحسابهم فيدق الطبل ويعزف المزمار من باب المحكمة الى باب المعبد ..

تلك هي القصة أو «الأسطورة» التي حيرت أصحابها قبل أن تحير القاضي ...!!

كنيسة سرجيوس العالمية:

ترجع شهرة هذه الكنيسة الى المغارة التي اختبأت بها «العائلة المقدسة» أبان حكم هيرودوس نائب الامبراطور الروماني في فلسطين وذلك عندما تنبأ كهنة المجوس بميلاد طفل من بني اسرائيل من أم عذراء ستكون حياته خطرا على الامبراطورية الرومانية فأمر بقتله الا أن الله سبحانه قد



الكيلة التاريخية التي كيل بها الذهب لاقباط مصر والتي يؤكـــد اليهود انها كيلة سيدنا يوسف عليه السلام عندمـــا كان وزيرا لمخازن فرعون مصر

بعث بجبريل الأمين الى «العذراء» يأمرها بالتوجه الى مصر حماية لحياة الصفير الكريم ، فرحلت اليها عن طريق سيناء حيث حلت بتلك المنطقة ، من مصر القديمة ، واختبأت بطفلها ثلاثة شهور في المغارة المذكورة التي بنيت فوقهـا الكنيسة المعروفة بكنيسةأبي سرجة نسبة الى الاخوة سرجيوس وباخوس .... أما الكنيسة ذاتها فهي عبارة عن مبنى عتيق به منبر انبـل ومنجليات حديثة لتلاوة آيات من الكتاب المقدس ، اي انها لا تختلف عن غيرها من الكنائس فيما خلا المغارة التي امتلأت بالماء الآسن وأقفلت ببـاب خشبي طوق بسلاسل من حديد ..!

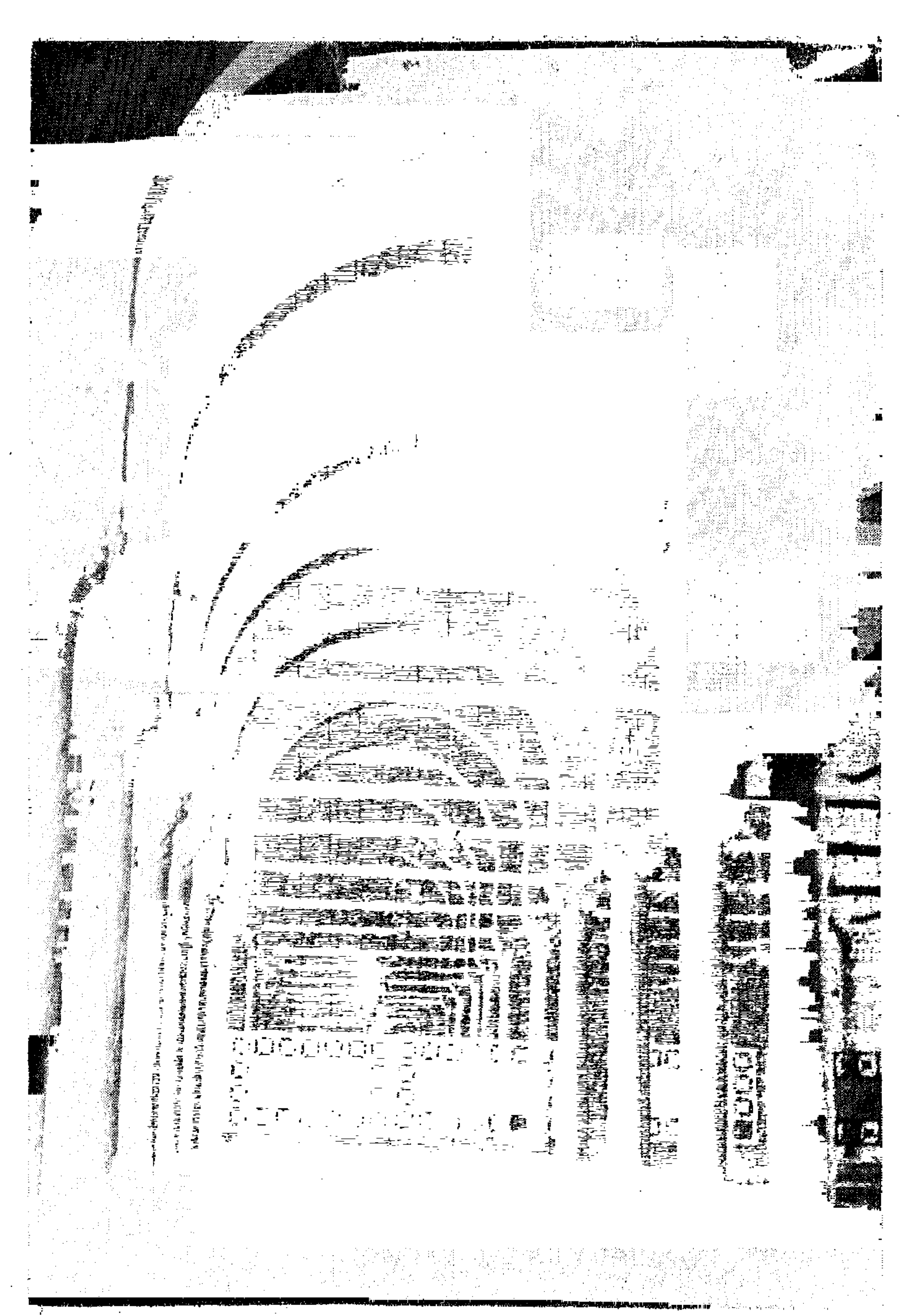




مسجد عمرو بن العاص

هناك قصة صاحبت بناء هذا المسجد ، وهي انه عندما فتح عمرو بن العاص مدينة الفسطاط ، لم يجد أرضا لبناء مسجد عليها فقد كانت المساحة الشاسعة من تلك المدينة مملوكة لسيدة قبطية وتلك ترفض اقامة مسجد على أرضها فيما يزيد عن مفرش جمل — ولما كانت هذه المساحة غير كافية لاقامة المسجد فقد قص عمرو جلد البعير الى شرائط قاس بها من الأرض ما يكفي لبنائه ، فأعجبت القبطية بذكاءه وتنازلت له عن المساحة التى استولى عليها ..

وأيا كان نصيب تلك الرواية من الصحة فقد أقيم المسجد «سنة ٢١هـ—٦٤٢م» على مساحة خمسين ذراعا أي ما يوازي ٢٥ مترا طولا و٣٠ ذراعا عرضا وقد بني له سقف من الجريد وأعمدة من جذوع النخيل ، وكان له صحن ضيق وبابا من الشمال وآخران من الواجهة الغربية أما الشرقية فقد كان لها بابان يواجهان منزل عمرو بن العاص الملاصق للمسجد وكان يحيط به طريق من سبعة أذرع من جميع الجهات أما القبلة فقد كانت أكثر ميلا الى الشرق . وما زال الولاة يتناولونه بالزيادة والتجديد حتى بلغت سعته أضعاف مساحة المسجد العتيق ستة عشرة مرة ... ويدلنا التاريخ على أن عمرو بن مسلمة الأنصاري والي مصر من قبل يزيد بن معاوية هو أول من تولاه بالزيادة والتعمير سنة ٥٣هـ (٦٧٢م) كما جدد في عهد عبد الله بن طاهر بيد ان النكبة التي حلت به ترجع الى عهد مراد بك حيث أمر بهدم حوائطه وسقوفه ثم تجديده واعادة بنائه مما أضاع معالمه القديمة حتى اذا تم تجديده في أوائل هذا القرن لم يعد به شيئا يذكر من تلك الزخارف والنقوش والآثار الاسلامية الجميلة !!



مسجد عمرو بن العاص

ليس حربا ولكنـــه الحسين :

لعل التسلسل المنطقي يقتضينا أن نعرف صـــاحب «البيت العتيق» ونسبه وصفاته وقصة استشهاده واختلاف الاراء واجماعها حول وجـــود الرأس الشريفة منتهين من كل ذلك الى مسك الختام محددين مخلفـــات الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ليتسنى لنـــا بيان مساحتـــه وتقسيماتـــه ومشتملاته ، وعلى ذلك نعرف الامام بأنه: عبدالله الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، ولد في شعبان سنة ٤ بعد الهجرة ، وقيل في السنة الثالثة وقد سمي حربا لميل العرب للشجاعة ولكن جده صلوات الله عليه وسلامه أسماه حسينا وفي رواية أحمد بن حنبل انه قد عتق عنه يوم سبوعه بكبش وحلق رأسه وتصدق بزينته فضة وأذن في أذنه ودعا له ، وانه قد قال عنه وأخيه الحسن رضي الله تعالى عنهما «انهما سيدا شباب أهل الجنة» .

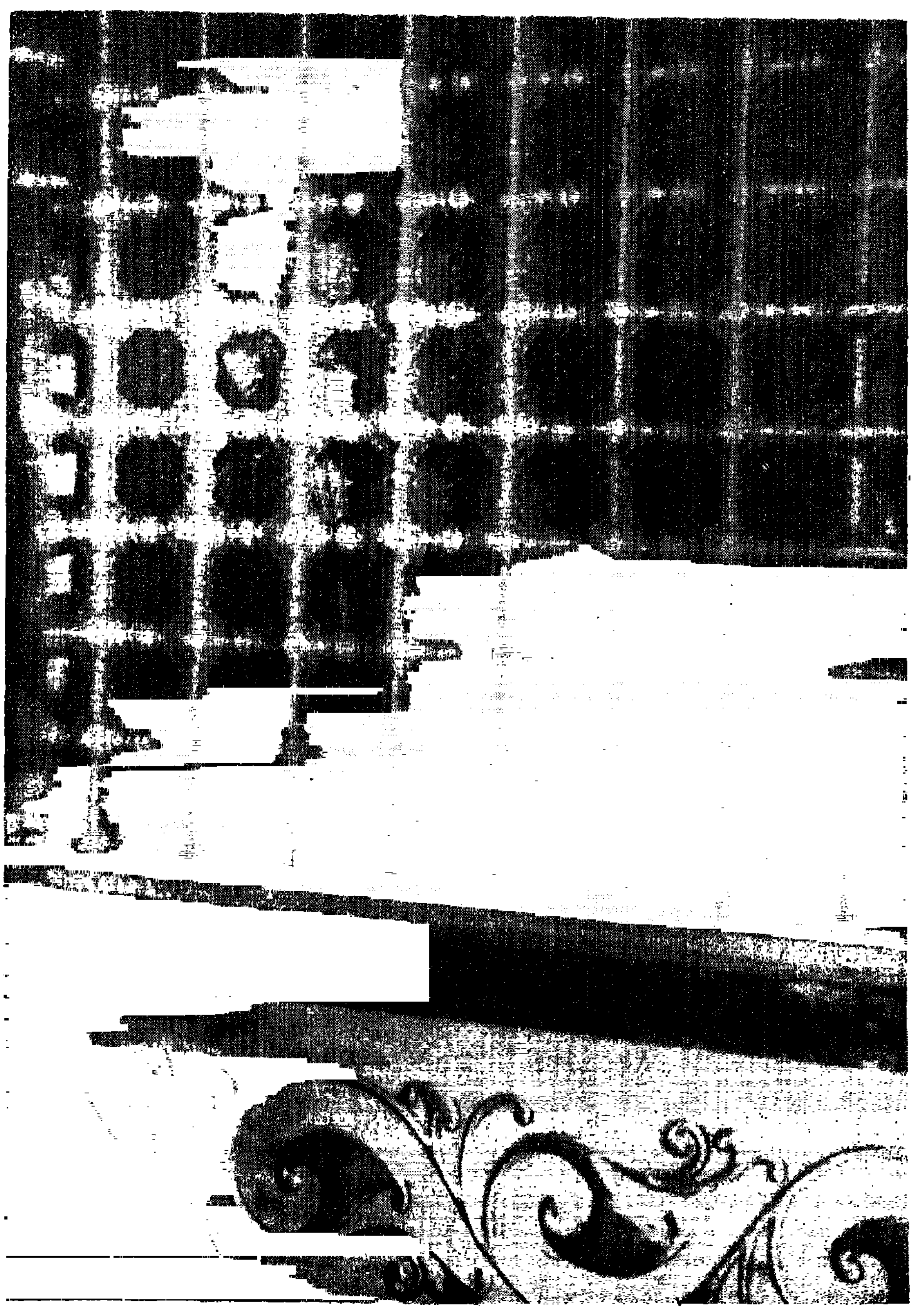
صفـــاته(١)

من صفاته الجود والشجاعة والتواضع ذي علم وفضل ، يروى انــــه دخل رجلا اعرابيا أخذ يسأل الجالسين معه عشرة الآف درهم يقضي بها دينا عليه فوعدوه بالقليل الذي لا يوفي دينا ولا يقيم أودا ، فلما سأل الحسين ناقشه جلية أمره حتى اطمأن الى كونه غير مخادع أو محتال أخذ يسأله في الفقه والدين فأجاب على أسئلته جوابا حسنا فأمر خادمه بأن يعطيه عشرون الف درهم ولم يبقي على مالديه من مال سوى القليل قائلا للسائل:

خذ العشرون فاقضي دينـــك بعشرة منها وانفـــق الباقي على أهلـــك وعيالك .. وأما شجاعته فقد اتفقت آراء الفقهاء (اجماع) على انه قد شهد مع أبيه عليا كرم الله وجهه موقعة صفين والجمل كما شهد قتال الخوارج وكان له فيها مواقف مشهودة ، كذلك مما يروى عن تواضعه انه كان يأكل مع الفقراء والمرضى وخدمه لا يفرق في ذلك بين طعام عظيم او وضيع ....

---

(١) ابن عساكر .



المقصورة الفضيـــة لسيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي رضي الله تعالى عنه

ويكفي تبيانا لفضله وعلمه انه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الرسول الصادق الأمين هادي البشرية الى طريق النور مؤسس شريعة الوحدانية وهادم عبادة الأصنام وخير داع الى الفضيلة ونبذ الرذيلة ، كما وانه ابن علي كرم الله وجهه ، الحكيم الفيلسوف الفقيه مؤسس علم الكلام وملتقى تعاليم الرسول منذ الصبا الباكر ..

تاريخ الاستشهاد

يروي تاريخ استشهاد الحسين رضي الله تعالى عنه انه: بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان في العام الستون بعد الهجرة انه قد بعث يزيد بن معاوية الى الوليد بن عتبة وكان واليا على المدينة أن يأخذ حسينا وعبد الله بن عمر ومن معهم بالشدة حتى يبايعوه بالأمارة ، فرفض الحسين بعد أن قرأ الرسالة قائلا:

لن أبايعه في السر ، وان فعلت أمام الناس فهي سواء ، ولقد حدث أن بعث أهل الكوفة الى الامام يطالبونه بقبول البيعة له ، فبعث اليهم مسلم بن عقيل(١) فلما وصل بايعوه موفين بالوعد ، الا أن يزيدا بعث الى عبدالله بن زياد والي البصرة يأمره بأخذ عقيل ومن معه بالشدة فلما وصل اليها قتل عقيلا وكل من بايع الحسين وكان عددهم ثمانية عشرة الفا وقيل ثلاثون الفا من أهل الكوفة ثم بعث برؤوسهم الى يزيد .. وفي اليوم الثامن من ذي الحجة أجمع الحسين رأيه على الخروج فلقي الفرزدق بن غالب الشاعر فقال له :

كيف حال الناس أيها الاعرابي ..؟

فقال له:

قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني امية والقضاء ينزل من السماء فليفعل الله ما يريد ...

فقال له الحسين:

---

(١) ابن عم الحسين رضي الله تعالى عنه .

صدقت لله الأمر والله يفعل ما يشاء .

هذا ولما كان في الطريق انقسم الراي بين صحبه انى ثلاث:

ـ فريق يرى عدم المسير .

ـ وفريق يرى المسير وهم أهل عقيل انتقاما لمقتله من يزيد ومؤيدوه.

ـ أما الفريق الثالث فقد وقف موقفا وسطا بين الرأيين مما دعى الحسين أن يخطب فيهم «وهم كثيرين» بأن: من أراد أن ينصرف فهو في حل .. فتفرق جلهم وسار على رأس فرقة صغيرة الى العراق بيد انه وجد الجمع قد التف نحو يزيد ، فقال الواحد من الشيعة:

ان أرادوا الانصراف ، انصرفت . وان أرادوا الصلح اصطلحت . ولكن مقاتلا يدعى شمرقال ليزيد:

والله لا تدعه ينصرف دون ان يدخل في طاعتك .. أما أن ينصرف هكذا فهو صاحب فضل فبعث زياد الى قائد جيوشه يقول له:

ان أسلم لنا الحسين فاتركوه ، وان لم يسلم فاقتلوه وأتوا لنا برأسه بعد أن تدوسه سنابك الخيل فانه أهل لذلك ...!!

فسار الأخير على راس جيوشه الى الكوفة وحاصر الحسين ومن معه من نفر قليل فأخذ يقاتلهم ببسالة نادرة فكانت الفرق تريد امهاله الا أن شمرا صاح فيهم:

الا ما تتركوه ..

انقضوا عليه ثكلتكم أمهاتكم .

فتقدم مقاتلا وضرب ذراعه اليسرى بسيفه فقطعها ثم انهالت عليه النبال والرماح فخر على ركبتيه ثم حاول الوقوف متحاملا على نفسه وأخذ يقاتلهم

الا أن ضربات السيوف أخذت تفعل فعالها في جسده الطاهر من قطع وتمزيق فسقط على الأرض وأخذ يجود بآخر الأنفاس وما زالت سنابك الخيل تدوس صدره وبهره حتى اذا صعدت روحه الطاهرة الى السماء تقدم شمـــر وفصل الراس عن الجسد وسار بها الى دمشق(١) مع قائد الجيوش مبشرا يزيد بأفظع اثم وأكبر جريمة ارتكبت في التاريخ .

خزانة الآثار النبوية الشريفة بالمسجد:

تشمل هذه الخزانة من الآثار النبوية على قطعة من قميصه الشريف ومكحلة ومرودة وقطعة من القضيب وشعرتين من اللحية الشريفة وبها أيضا مصحفان كريمان بالخط الكوفي أحدهما بخط سيدنا عثمان بن عفان رضـــــي الله تعالى عنه والآخر بخط سيدنا علي كرم الله وجهه . ذكر ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم وفاته «ثوبا حبره وازار عماني وثوبان صحاريان وقيص صحاري ، وقميص سمولي وسراويل وجبة يمنية وخميصة وكساء أبيض وقلانس وثلث أرض وادي القرى وخمس أرض خيبر وحصته من أرض بني النضير» .

هذا وتبلغ مساحة المسجد في الوقت الحالي ٣٣٤٠ مترا وقد روعي الحفاظ على الطراز القديم عند تجديد المبنى الذي جدد عدة مرات اخرهـــــا ما قامت به ثورة يوليو ١٩٥٢ من توسيع مبناه بعد أن ضاق بالمصليين خاصة في المواسم والأعياد ، وغني عن البيان ان المقصورة قد دفن بها الراس الشريفة وهي عبارة عن اطار من الفضة الخالصة شيدت على حساب رجال طائفة البهرة الهندية مثلما حدث في مقصورة شقيقته السيدة زينب رضي الله تعالى عنها وعن والديها وارضاهم أجمعين ....

---

(١) اختلفت الروايات حول وجود الرأس الشريف فمن قائل انه قد دخل بها عبدالله بن زياد الى يزيد بن معاوية بدمشق ثم اعيدت الى الجسد بكربلاء بعد ٤٠ يوما من تاريخ الاستشهاد ومن قائل انها قد دفنت بعسقلان ثم حلب والرقة ومرو والقاهرة في أواخر العصر الفاطمي الا ان الاجماع قد تايد بأنها قد نقلت عن عسقـــلان الى القاهرة في يوم الاحد ق جمادى الثاني سنة ٥٤٨هـ الموافق ٣١-٨-١١٥٣م وخير ختام ما قاله سبط الجوزي من انه (في اي مكان وجد رأس الحسين او جسده فهو ساكن في القلوب والضمائر قاطن في الاسرار والخواطر) .



مسجد السيدة زينب
رضي الله تعالى عنها

لهـــا وجه كالقمـــر :

يروي تاريخ كربلاء الحزين انه عندما حلت الكارثة العظمى باستشهاد الحسين بن علي رضي الله تعالى عنه أن يزيدا بن معاوية والي دمشق قد بعث في طلب السيدة زينب يعرض عليها مالا يكون بلسما لجراح قلبها لعلهـا ترضى وتنسى ولكنها نهرته واخذت في تأنيبه قائلة:

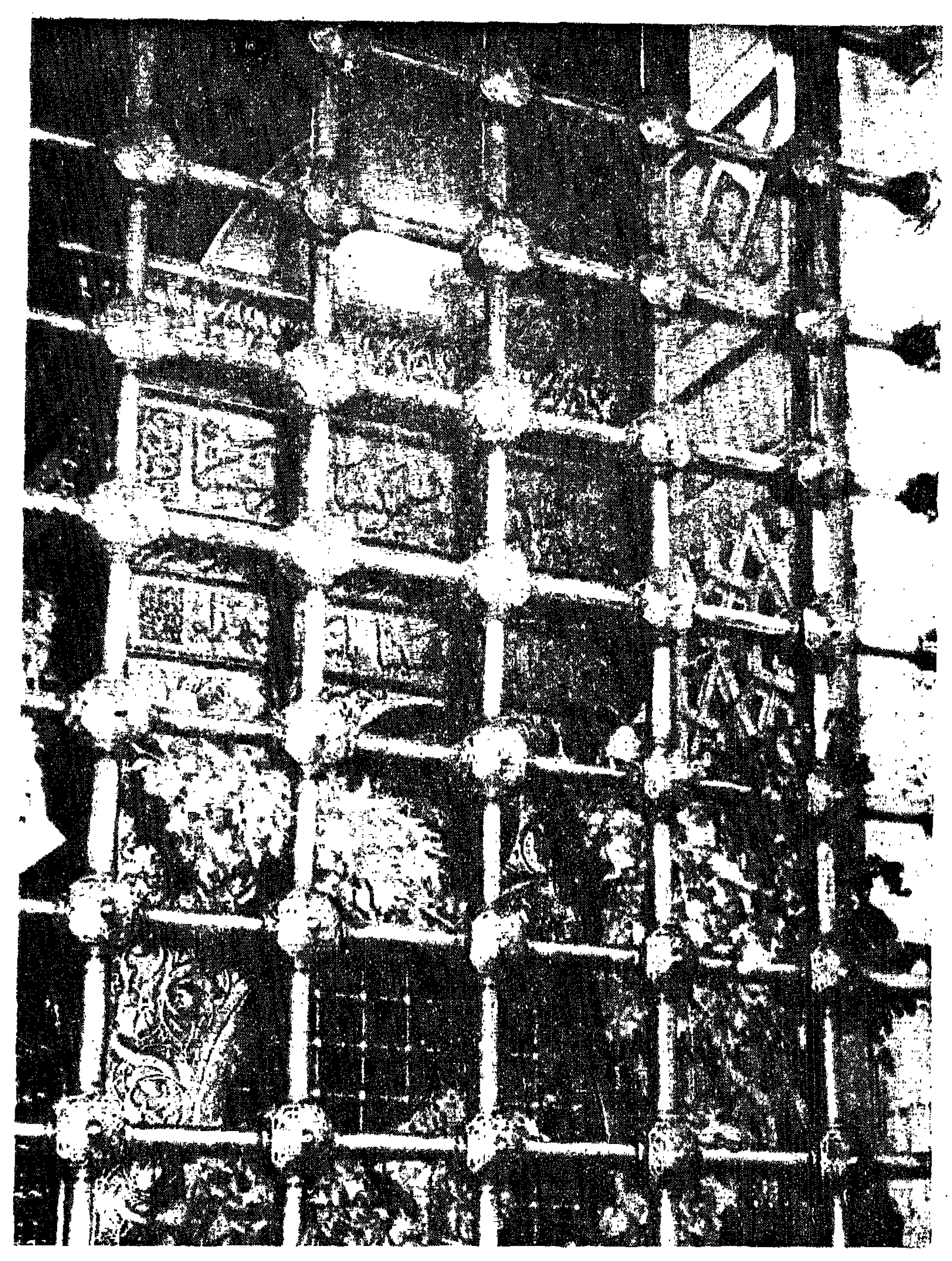
يا يزيد ما أقسى قلبك ، تقتل أخي وتعطيني المال ، والله لا كان ذلك ابدا ..

فأمر النعمـان بن بشير بمساعدة بشير بن خذلم وجمع من الرجال بصحبة أهل البيت الى المدينة فأكرم الاخير الرحلة فكان يقضي حوائجهم ويلبي رغباتهم ويحط برحالهم ويسهر حارسا عليهم في ليله. ذلك انه قد كان مع أهل البيت بقلبه وعليهم بلسانه فلما وصل واياهم المدينة جمعت السيدة زينب رضي الله تعالى عنها وصويحباتها من نساء أهل البيت ما لديهم من حلى قليل وقدموه له ولكنه رفض بإباء أخذ عطية على اداء واجب ..

* * *

هذا ولقد حدث في ذلك الحين ان بعث عبدالله بن زياد رسولا الى عمرو بن سعيد والي المدينة (يبشره) (بمقتل) الحسين فقال له عمرو:

ـــ ناد في المدينة وانشر النبأ على الناس .



مقام السيدة زينب حفيدة الرسول عليه السلام

فطلع على المنبر واخبر اهل المدينة بفاجعة الشهيد فعجت نسوة بني هاشم ، فضحك الوالي قائلا:

— لقد عجت نسوة بني زياد عجة كعجيج نسوتنا غداة الأرانب وقيل انه لما دخل أحد المنافقين على عبدالله بن جعفر (زوج السيدة زينب) يقول مواسيا في ولديه:

— هذا ما لقيناه من الحسين .

قذفه بنعله وهو يقول: يا ابن الخناء اللحسين تقول هذا !!؟

انه تهون معه الصحبة وان ولداي فداء له .. صبرا وجاهدا معه وانه لما يخفف عني مصابه ...

ولما كانت الصدمة اكبر من أن يتحملها قلب «السيدة زينب» فانها قد ذهبت الى مسجد الرسول عليه السلام وامسكت ببابه وهي تقول باكية:

— يا جداه اني ناعية اليك اخي الحسين ..

ثم أخذت تثير الجمع على يزيد بن معاوية وعصبته فاستنجد به والي المدينة مما دعاه أن يأمر بخروجها من المدينة الى حيث تشاء من أرض الله غير الحرمين الشريفين فرفضت وعز عليها ذلك فهونت عليها ابنة عمها عقيل وأوصتها بالرحيل هي وبنو هاشم فاختارت مصر لما سمعت أن أهلها يحبون البيت النبوي الشريف وانها أرض الكنانة ، وأن الله قد ذكرها بالخير في القرآن الكريم ولما سمعته من أن جدها صلوات الله عليه وسلامه قد أوصى بمصر خيرا قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى «انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما » .

وقد صحبها في الرحلة فاطمة وسكينة ابنتا الحسين رضي الله تعالى عنهما

فما كادت تصل الى مدينة بلبيس (من أعمال مديرية الشرقية) حتى هرع الى استقبالها مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر وعبدالله بن الحرث ورهط كبير من أعيان مصر وكبار علمائها وبكى مسلمة عند العزاء ، وكذلك بكت السيدة زينب وقالت:

— (هذا ما وعد الله وصدق المرسلون) .

وما ان عاد واحد من مستقبليها حتى وصفها بقوله:

— رأيتها حسناء ، لها وجه كشقة القمر . ولقد ظلت منذ قدومها الى مصر سنة ٦١هـ الموافق ٦٨١م بقصر الحمراء القصوي بدار الوالي (مسلمة بن مخلد الانصاري) ولم يمض على استشهاد الحسين سوى ستة اشهر وأيام وهي في خلوة ناسكة متعبدة حتى انتقلت الى الرفيق الاعلى سنة ٦٢هـ لتدفن بتلك الدار حيث اختارت المقام والضجعة في الموتة الشريفة ، وهكذا رحل القمر الى السماء ولكن نوره لم يرحل عن القاهرة بل الدنيا أبدا ...



مدينة الظرفاء

ضحكات لها تاريخ

الذي يتأمل حال المصريين يكاد يعتقد بيقين انهم قد تركوا صرعات الحياة وهموم العيش وباتوا ينظرون الى الدنيا بمنظار وردي ، والحق انهم قد عرفوا للحياة قدرها وانتهجوا لأنفسهم منهاجا يتفق مع حكمتها فعلام البكاء والعمر قصير وفيم النواح وكل شيء فيها سائر الى زوال .. انه أولى للانسان بدلا من التباكي على الماضي أن يتفاعل بالحاضر ويتطلع الى المستقبل ، تلك هي النظرة الصحيحة للامور والتي بها يستقيم الميزان .. ميزان الحياة الحساس الذي توزن في كفتيه سعادة الانسان وشقاؤه .. افراحه وأتراحه .. فالحمقى هم الذين يتاجرون في الآلام ويقبضون الثمن دموع ، والأذكياء هم الذين يتاجرون في متناقضاتها ويقبضون الثمن ضحكات فيهدأ بالهم ويستريح خاطرهم حيثما يكون الماضي عبرة والحاضر صحوة وفكرة ... ونحن اذا نظرنا الى النكتة في مصر وجدنا انها أزلية خالدة ، فها هم قدماء المصريين يسجلونها على جدران المعابد ضمن ما خلفوا من آثار وكنوز ... فالكاتب «سنوحي» عندما فر الى خارج الحدود هربا من اضطهاد الفرعون الجديد والذي كان على خلاف معه في سياسة تصريف الملك وادارة شئون البلاد يروي لنا العديد من النوادر والطرائف التي شاهدها فاستوجبت التسجيل لظرفها وغرابتها .

أيضا وجد على جدران المعابد كثيرا من الرسوم — الكاريكاتورية — التي تهتم بالمبالغة وخلق النكتة من المواقف المتناقضة ، من تلك الرسوم ما يعبر عن صداقة الذئب للأغنام وقيامه بحراستها من اللصوص ، ومنها

ما يعبر عن صورة امرأة لها نهدين ملتصقان في ظهرها ومنها ما يظهر الاوزة وهي تحمل القش أو البرسيم كالجمل علـــى ظهرها ..!! فمصر من قديـــم مهد الحضارة التي وسعت كل شيء من علم وأدب وفن وعلى هذا فاننا عندما نتكلم عن القاهرة باعتبارها مدينة للظرف والظرفاء فاننا نفعل ذلك لكونها حاضرة قديمة وعاصمة من أعرق العواصم التي ارتحل اليها كل لبيب أريب من شمال الوادي وجنوبه بل لعلها العاصمة الوحيدة التي نزح الوافدين اليها من أجناس مختلفة وعلى صورة لم يعهد لها التاريخ مثيلا وهذا في حد ذاته كافيا لجعلها مدينة عجائب ومتناقضات فما بالك (بابن البلد) قاطنها الذي جرى الظرف في كل قطرة من دمه وشب على النكتة (والقافية) والدعابة .

اذن فالنكتة لها في تلك الحاضرة تاريخ وهذا التاريخ يدلنا على أنها قد ازدهرت في عهود المماليك والأتراك وأسرة محمد علي فكان لها في تلك العصور قدم راسخة وباع طويل ، بل ان العهد الأخير في يقيني هو العصر الذهبي الذي ظهر للدعابة فيه رجال مشهورون ، ذلك أن منهم المحتـــــرف وطـــالب الرزق والقوت والهـــادي أو الغاوي يقول النكتة (وأجره على الله) ....

أشهـــر الظرفـــاء

والذي يهمني عند الحديث عن أشهر الظرفاء أو أشهر ظرفاء القاهـــرة هو تصحيح لتلك الفكرة التي راح ينادي بها البعض من ان النكتة صنعة وصياغة وليست فنا وموهبة اذ أن النكتة عندي طبيعة وأصالة ، بمعنى أنها تولد مع الشخص حيث يولد وتنتهي معه حيث يموت ، فالساخر أو الهازل على التفصيل السابق لا يستطيع «صناعة» النكتة الباقية التي تستطيع النفاذ الى عقول وقلوب السامعين ما لم يكن موهوبا أصلا ، وعلى سبيل المثال فان صناعة السينما تختلف اختلافا واضحا عن فن التمثيل .. صناعة السينما يتدخل فيها العنصر العـلمي أو عنصر الميكنة بصفة أساسية ، كالهندسة الصوتية وتسجيل المناظر والتصوير والاضاءة والترجمة وطبع



سعيد باشا خديوي مصر واحد حكام القاهرة خلال تاريخها الطويل

الشرائط .. وفن التمثيل ... يتمثل في (قدرة) أشخاص (بذواتهم) على التحرك أمام الكاميرا متقمصين شخصيات وقعت لهم حوادث معينة في ظروف معينة وزمن معين ... واقول بذواتهم لأنه لا يستطيع شخص لم يؤت موهبة التمثيل أن (يتحرك) أمام الكاميرا أو على خشبة المسرح مطابقا «الصورة بالأصل» أو التمثيل على الواقع بدرجة بارعة أو متقنة غير هؤلاء ... وهؤلاء فقط ... أيضا يختلف الشاعر عن المتشاعر والكاتب الأصيل عن المدعي ، فكم مثقف ولد في «حي الجمالية» غير «نجيب محفوظ» ولكن من منهم استطاع أن يقدم صورة واقعية لصيقة لهذا الحي بنماذجه البشرية الفريدة ومجريات الحياة اليومية فيه غيره .. واخيرا فان النكتة ليست قاصرة على تلك التي تجري على اقلام الكتاب الساخرين فحسب ولكن يمكن للنكتة البارعة الجيدة التصويب أن تصدر عن جاهل لا يعرف القراءة أو الكتابة لانها كما قلنا أصالة وموهبة لا تؤتى بالخبرة أو تكتسب بالمران .

— حافظ ابراهيم —

هناك اختلافا واضحا بين حياة حافظ ابراهيم ونفسه ، فالطفل اليتيم الذي خرج غاضبا من بيت خاله راجما اياه بقصيدة شهيرة:

ثقلت عليك مؤنتي اني أراها واهية
فافرح فاني ذاهب متوجه في داهية

هذا الطفل كان مفروضا فيه أن يشب على الانطواء والعزلة ، لا على الدعابة والقافية ولكن ربما حولت الأحزان ضحيتها الى ساخر أو فيلسوف فهل كان حافظ أحدهما أو كان الاثنين معا .....!؟

كان يوما جالسا في حديقة داره بحلوان عندما دخل عليه صديقه الشيخ عبد العزيز البشري وبادره قائلا:

لقد رأيتك من بعيد فتصورتك واحدة ست ..!

فقال حافظ:

والله يظهر ان نظرنا ضعف ، أنا كمان شفتك وانت جاي افتكرتك راجل ...!

وكان البشري وحافظ مدعوين الى احدى الرحلات ودخل البشري عليه في غرفة نومه وطلب منه أن يرتدي ملابسه .

فقال له حافظ:

أنا لسه ما غسلتش وشي ... فقال له البشري :

ــ وشك موش عاوز غسيل ... نفشه كفاية .....!

كما روى انه كان يصحب صديقا ضعف بصره واحتاج لرفقته الى وزارة الأوقاف التي كانت تجري عليه راتبا لسبق عمله بها ولما أصاب بصره من علة تستوجب العطاء ، وعند مغادرتهما الوزارة تقدم أحد المتسولين وهو يقول لصديقه :

ــ اديني شيء لله ربنا ينور لك عينك ....

فصاح فيه حافظ:

ــ انت عايزهم يقطعوا عيشه ...!

* * *

وقف يوما يلقي قصيدة في رثاء عبد الخالق ثروت باشا وكان الجمع حاشدا والشعراء يتتابعون ، وكان من بينهم المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب شاعر البادية ، وكان من عادة الشيخ أن يحضر الى الأماكن التي يرتادها راكبا حمارا . ثم يتركه أمام الباب في رعاية البواب أو الحارس ، وعندما وصل حافظ في القائه الاخاذ الى أحد المقاطع المؤثرة سأله الحاضرون الاعادة، وصادف أن ارتفع نهيق حمار الشيخ في الخارج فقال لهم حافظ:

ـ دقيقة من فضلكم حتى ينتهي حمار الزميل من انشاده ...

فانقلب المأتم الى ضحك متصل ....

وكان يسير مسرعا في طريقه الى دار الكتب عندما كان مديرا لها ، وكان يسرع خطاه ، واذا بأحد المارة يستوقفه ليسأله قائلا :

ــ والنبي يا عم ، الشارع ده رايح على فين ..؟!

فأجابه حافظ:

ــ يا اخي لا رايح حته ولا جاي من حته أهو طول عمره هنا ....

وكان يحضر حفلا موسيقيا ، وطلب من قائد الاوركسترا أن يعزف لحنا معينا ، واذا بقائد الأوركسترا يقول له:

ــ ان اللحن الذي يطلبه قد عزفه منذ دقائق فأجاب حافظ على الفور:

ــ يا سلام ..! على كده يبقى انبسطنا ..!!

كما روى أحد أصدقاءه أن صديقا له قد اخترع جهازا لترويق الماء وكان لايكف عند زيارته له التندر به وتعدد صفاته وفوائده ، وفي آخر مرة زار فيها حافظا ، أخذ يروي كالعادة فوائد الجهاز ومنافعه ، فلما رأى حافظ الضجر على وجوه الجالسين قال لهذا الصديق:

ــ ياأخي وايه ذنب الناس ، تروق الميه وتعكر دمهم ....!

* * *

جلس حافظ ذات مرة مع صديقه الشاعر الكبير أحمد شوقي ، فلما لاحظ انه يرتشف الشاي بنهم شديد ابتعد عنه وهو يقول:

ــ أحسن بعدين تشفطني ...!!

وكما كان بارعا في النكتة المنطوقة ، فانه أيضا كان بارعا في الاضحاك من خلال بعض ما ينظم من أشعار ، حدث أن تزوج جارا له يدعى حامدا ، ولم يدعوه في ليلة زفافه فبعث اليه بقصيدة يقول له فيها:

أحـــامد كيف تنسـاني وبيــتي | وبينــك يا أخي صلة الجـــوار
أيشبع مصطفى الخولي وأمسي | أعـــالج جوعتي في عـــقر داري
وبيتي فـــارغ لا شيء فيــــه | سواي وانني في البيت عـــاري
ومـــالي جزمـــة سوداء حـــتى | أوافيكـم علــى قـــرب المـــزار
فـــان لـــم تبعثـــن الي حـــالا | بمـــائدة على متـــن البخـــار
تغطيهـــا من الحـــلوى صنـــوف | ومن حمـــل تتـــبل بالبهـــار
فـــانني شاعر يخشى لساني | وسوف أريك عـــاقبة احتقـــاري

— الشيخ عبد العزيز البشري —

لا يفتأ الناس يرددون نكاتا ربما لا يعرفون قائلها ولم يك القائل سوى الشيخ عبد العزيز البشري الأديب والعالم الفكه ورجل الدين الذي نبذ الوقار الزائف والجمود المزموم وأخذ بكل ما هو عصري في سلوكه وحياته ، وكما اختار «حافظ» بار اللواء مقاما للجلوس والصحبة مع الرفاق من الأدباء والشعراء ورجالات الوطنية المبرزين اختار البشري بار «الانجلو» منتدى ومكانا للسمر ومناقشة الآراء ومطارحة الفكاهة مع غيره من الصحاب الذين اختصهم بحبه ووجدوا في روحه مشكـــاة تضيء جلستهم بـــالحب والضحكات ... روى أحد أصدقائه انه قد دخل عليهم كالسيل الجارف في بار الانجلو وهو يسألهم ان كانوا قد رأوا بائعا (سريحا) يبيع (ترامس) فلمـــا أجابوه بالنفي تأفف فراحوا يسألونه عن أصل الحكاية فقال وهو يضع على المائدة «الترموس» جسم الجريمة وأخذ يصف كيف انه بالأمس كان وحده واذا بالشقي اللص بائع الترامس يصف له قدرة هذا الترموس على حفظ برودة الماء فيه لمدة ثمان وأربعين ساعة وعندما عاد الى منزله اخذ يضع في الترموس قطعا من الثلج صغيرة حتى أصبح محتواه ثلجا لا ماء .

وعندما أصبح الصباح منى نفسه بشرب ماء بارد من الترموس ولكنه وجـــده ساخنا فراح يقـــول :

ماء غاليا وضعت بعضا منه في كنكة القهوة ولقمته بنا وشربتها قهوة وشربت مقلب اللص ...

وذهب مرة مع صديقه حافظ ابراهيم يزوران حديقة الحيوان وعند خروجهما قال له حافظ:

ـــ حاسب احسن حد يحوشك على الباب .

فأجاب البشري:

ـــ أما بالنسبة لـــك فـــلا خوف ولا حذر ، لان منـــك كتير وبنـــاقص واحد ...!!

وكان يجلس مع «الشلة» رجل كلما جاء دور الحساب في بار اللواء يصر على أن يدفع ثم يخرج من جيبه ورقة من فئة الخمسين جنيها ، وبالطبع كان الجرسون يعتذر فيدفع آخر الحساب وتكررت هذه القصة أكثر من مرة ، وفي آخر مرة هم الرجل بدفع الحساب بعد أن اقسم أكثر من مرة ، ثم أخرج نفس الورقة المالية الكبيرة فعلق البشري على الفور:

ـــ أنت برضه طلعت الأبونيه ...!

ويرى حافظ ابراهيم شابا وسيما فيهتف قائلا:

ـــ الله أكبر ، هكذا أبناء الأمهات اللاتي تدفع المهور الغاليةلأمهاتهن .

فيجيبه البشري:

ـــ على كده الست والدتك دفعت «دوطه» للمرحوم والدك . ويقابله صديق في الطريق فيشكو له من ألم شديد في المصران الأعور ويشير له على مكان الالمفيالجانب الايسر من بطنه ولكن الصديق يطمئنه بأن المصران الاعور في الناحية اليمنى فيجيبه البشري في هم شديد:

ـــ أنا خايف أكون أعور شمال ...!!

* * *

وبرغم تربيته الأزهرية فانه كما قلنا كان محبا «مع الاعتدال» لكل ما هو عصري ذي فائدة وجدوى .

اسر اليه أحد جيرانه من حي السيدة زينب حيث كان يسكنه في فترة من حياته ، بأن اهل الحي أخذوا يتحدثون باشياء لا يريدوها أن تحـدث ، فسأله البشري:

ـــ وماذا والعياذ بالله قد حدث مني وأزعجهم فقال الصديق:

ـــ ان المحروسات بناتك الصغار يلبسن البرانيط في ذهابهن للمدرسة الفرنسية ، فقال له البشري على الفور:

ـــ أمال عايزين البسهم عمم ..!

ومن مزاحه مع أصدقائه انه خلع جبته ذات يوم وكان مدعوا على الغذاء، ، وذهب الى مكان غسيل الأيدي ، ولما عاد وجد رسما لحمار على الجبة ... فتلفت حواليه ثم قال مستعلما:

ـــ مين اللي نشف وشه في الجبة ...!!

وذهب ذات مرة لزيــارة أخته المتزوجة في عربة حنطور ومعه قفصا يحتوي على خمسة عشرة دجاجة ولما وصل الركب حمل السائق القفص الى المنزل واحتفظت أخته بالفراخ في السطوح واعتنت بها وبأكلها ونظافتها كل العناية ...

وبعد شهرين من هذه الزيارة كانت التعليمات لدى السائق أن يذهب الى دار الأخت المتزوجة ، وفي الصباح تنسم الشيخ روائح زكية منبعثة من بيض مقلي بزبدة طيبة فيسأل وهو يتناول انطاره عن كل هذا الخير ـــ وكان البيض كثيرا أمامهم .

فقالت له أخته:

ـ فضلة خيرك ... الفراخ فراخك والبيض منهم ، واذا كنت عايزهم اجمعهم لك . بس تدفع مصاريف الأكل اللي قدمته لهم وهي حسبة ثلاثة جنيهات ، فصرخ الشيخ وهو يقول:

ـ بقى يا عالم ادفع قسط بناتي في «الساكركير» ثلاثة جنيهات في الشهر ، وادفع للفراخ زيهم ... ليه ..!؟ رايحين يكاكو فرنساوي ..!!

وسئل قبل وفاته بأيام عن اعظم شاعر فقال :

ـ عبد الحميد الديب .

وعن أعظم أشعاره .

فتلى القصيدة التي يقول الديب فيها عن حجرته:

تعلمت فيها صبر ايوب في الضنى   وذقت هزال الجوع أكثر من (غندي)
جــوارك يـــا ربي لمثـلي رحمة   فخذني الى النـــار أو جنة الخـــلد

وكأنما كان يحس بقرب النهاية فلاقى ربه بعد ذلك بسبعة أيام ليجاور الشاعر البائس الذي قال في حقه كلمة عدل وانصاف في الوقت الذي كان فيـــه زملائه من الشعراء والادباء غارقون في الخمـــر والملذات متخذيـــن من نحسه مادة للسهر والسمر ، وهو البائس المسكين الذي بكى الدموع دما وشرب كأسا لم يذقها أحد في حياته .

ـ أمام العبد ـ

اشتهر العبد بالظرف وخفة الدم فاستطـــاع ان يحول الفسيخ الى شربات ، فهو الشديد سمار اللون ، يسخر من لونه هذا فينسى الصحاب قتامة وجهه ويأنسون اليه كالزنبقة السوداء .

جلس يوما يكتب خطابا لصديق فتساقطت نقطة من الحبر على الأرض

فقال على الفور:

ــ يا خبر اسود ... الواحد بقى يعرق كتير اليومين دول .. وعندما سأله خليل مطران عما يمنعه من الزواج اجابه:

وأما المـــــلاح فيابينني   وأمــا القباح فأابى انـــا

وأجاب على سائل آخر في نفس الموضوع بقوله:

أنـــا ليــل وكل حسناء شمس   فاجتماعي بها مــن المستحيل

فهو لا يتحرج من النكتة ولو على نفسه ما دام محافظا عف القصد نظيف اللسان ، طلب منه اديب تافه أن يستمع الى قصيدة من قصائده فقال له في همس:

ــ طلب استنى لما نروح احسن خرابة حد يشوفنا ..!

ولما نعي اليه أحد أصدقائه وكان صاحب ورشة لحام قال في لهجة اسيفة: «اللهيلحمه» .

* * *

هو أيضا لم يمنعه الموت من السخرية والابتسام فعندما زاره صديقه الشاعر خليل نظير وجده يحتضر في غرفة مظلمة تضيق عليــه لكأنها ثوبــه استأذنه في أن يستدعي طبيبا لاسعافه وعلاجه فقال له:

ــ أجر الطبيب عشرون قرشا . لو كانت معي ، لكنت اشتريت ربع كونياك مارتيل وصندوق بسكوت ماري وأموت من السكر ...!!

فالنكتة طبع فيه والابتسام طابع حياته وهما بحق فلسفة وأي فيلسوف هذا الذي يقابل ما يخشاه الناس بالابتسام .

ــ حسين الترزي ــ

اسمه الحقيقي: حسين فهمي الكريتلي ، فقد كان جده الأعلى من

أهالي جزيرة كريت عندما كانت ضمن أملاك الامبراطورية العثمانية ، وحضر الجد الى مصر وتزوج مصرية وانجب احد أبنائه حسين فهمي الكريتلي ، اما صفة الترزي هذه لحقت به على أثر مساهمته بنصيب في محل للتفصيل ، لم يكن يعرف في هذه الصناعة شيئا ولكنه كان يشرف على العمال ثم يترك المحل الى جولاته وسهراته حتى أفلس المحل وارتاح وأراح ... وكان وجهاء القوم من أدباء وشعراء يتشوقون الى مجالسه ويتحرون مكانـــه ليصحبهم في سهراتهم .

وفكاهاته ومداعباته تقوم على دعامتين عرفهما بحسه الفطري ، فقـــد كان لا يعرف القراءة والكتابة ...

كانت الدعـــامتان هما: خلل القياس ومباغتة المفـــارقة ، الى جانب اصطياد المناسبة وتخريج الصور العديدة من لفظ أو جملة مع عفة في القول ورعاية للآداب واحترام للتقاليد المرعية فقد كانـــت مجالسه زاخرة بأرقـــى الطبقات وصفوة اهل الأدب ...

وكان ذكيا ذكاء مفرطا ، حتى لقد اخترع اختراعات منها:

جهاز حاسب يوضع عند المخابيء أو المناجم ليعد الأعداد الداخلية أو الخارجية واستطاع أن يقسم المليمتر الى اجزاء .....

يقول أحد اصدقائه:

كنا نسهر معه ذات مساء في كازينو راق بالاسكندرية واحتك به أحد السكارى وراح يضـــايق حسين ، وحسين يلاطفه ، دون جدوى وأخيرا قال له:

ـــ يا أخي ابعد عني الله يخرب بيتك ...

فتدخلنا وفضضنا الاشتباك ، ثم رحنا نثير خوف حسين من ناحية مـــن كان مشتبكا معه قائلين له: انه ابن أكبر محام وسيرفع ضده دعوى قذف في مكان عام والشهود كثير فاغتم قليلا وبعد تفكير قال:

أنا رايح اترافع عن نفسي: أنا لم أتفوه بما يهين هذا السكير ودعوت الله أن يخرب بيته ومنذ متى يستجيب الله لدعائي ان الأمر معلق على استجابة

الله لدعـــائي ، وهــذا أمر أنا واثق من عدم تحقيقه . وبهذا يا حضرات القضاة .... ولكن الواقع أنه ارتبك وأفلحنا في اثارته ، فانقطع عن تكملة مرافعته أو مشروع مرافعته ... وضحك معنا ...

وعندما كان شريكا في محل تفصيل الملابس ، حضر اليه دعي يجالس العظماء وهو ليس منهم وكان الى جانب ذلك لا يعني بنظافة بذلته ، ويترك عليها بقايا مما يأكل أو يشرب ، وعندما رأى حسين في المحل بادره بلهجة حادة:

ـ أنتم ما دام مش قد المحل ده فاتحينه ليه ...!

فين البدلة اللي جبت قماشها واتعمل لها بروفتين ، وكل مرة تقولوا لي بعد يومين ... بعد يومين ... فقاطعه حسين وهو يقول له وقد غاظه هذا التأنيب الغليظ:

ـ البدلة جاهزة يا استاذ بس تلقاهم بيركبوا لها البقع ...

وكنا نجلس آخر الليل في (قهوة المثلث) بميدان الجيزة في الصيف ، وكان صاحبها يضع في الأشجار لمبات حمرا وخضرا وزرقا ، وجلسنا على مائدة كانت تظللها احدى هذه الأشجار واذا به يقول متوسلا:

ـ ياجماعة اعملوا معروف ننتقل على مائدة مايكونش فوقها شجرة من دول ، أحسن لمبة تكون استوت تقع علينا ....!

وكان يزورني في مكتبي وكان وسيما . ولم يكن النيون قد اخترع فكانوا يضيئون الحجرة بأربع كلوبات من ذات اللون الأبيض الناصع وكانت كروية الشكل مما يلتبس على ضعاف النظر أمرهـا .. وكـان في احدى هذه الزيارات ، عندما كان نظره قد أخذ يضعف ضعفا شديدا فنظر الى السقف ورأى هذه الكلوبات الناصعة ، واذا به يسألني في شيء من الاستهجان:

ـ أنتم معلقين توم ...!؟

وموضع الفكاهة انه استعمل خلل القياس ، لأن مكتبي كان في وزارة الخارجية «في قصر التحرير» .

ويستمر صديقه السفير فيقول: ... وكنا نجلس في احدى النوادي

وحضر أحد الوجهاء الذين يهتمون كثيرا بهندامهم وراح يحمل على الحلاق الذي قص شعره وأصبح لا حديث لنا غير هذا الوجيه وهو مهتاج يندفـــع في عصبية ، فقال له حسين :

ــ المسألة بسيطة يا اخي روح للحلاق ورجع له الحلقة ما دام مش عاجباك ..!

وذكر له أحد أصدقائه ، ان الحارة التي يقع فيها منزله يسكنها عفريت ، فقال له حسين:

ــ ما كبر دلوقت العفريت وبقى عجوز وغلبان وبيقعد على الأرض ويسند ظهره للحيط وامبارح بس وانا فايت عليه لقيته يقول لي: والنبي يا ابني انت ياللي ماشي ، تعالى خد بايدي عشان اخضك .

وكنا نستمع ذات ليلة الى ام كلثوم وكلنا آذان ... واذا بالجالس بجوار حسين يسأله ان يدله على القصبجي ، ومن يكون هو من بين أعضاء التخت ، فقال له حسين ووجدها فرصة ليسرح به: شوف بقى .. سيب أول قصبجي وتاني قصبجي وثـــالث قصبجي يبقى هو الرابع على ايدك الشمال ..! ومن تعليقاته اللطيفة انه كان يقول: ان العادة جرت في مصر على فرش الرمل في ثلاث مناسبات ، عند ذهاب الملك لافتتاح البرلمان وعند ذهاب سفير لتقديم أوراق اعتماده ، وعند مرور وابور الزلط عند تبليط الشارع ...

ومن مفارقاته المضحكة المبكية قوله لي: يا أخي الناس جاكتاتها بتدوب من الكوع أو الياقة أو الجيوب ، وأنا لا يذوب معي الا كم الجاكتة من كثرة من كان يأخذ بيدي بعد ضعف نظري ...

رحم الله حسين الترزي الذي كان فارسا في عالم الظرف لا يشق له غبار ....

اشتهرت اسرته بالثراء الواسع فكان لها من العمارات ما يجعلها في عداد الأسر العريقة ولكن «الابن» ينشأ مدللا فيبدد كل شيء فلا يبقى له سوى هذا الرصيد الهائل في «بنوك الظرف والملاحة» ....

من تلاميذه ، فنانة الشعب ام كلثوم ومن اصدقائه «أحمد رامي» أقام مع الأولى في أحد الفنادق عند مجيئها الى القاهرة في صحبة والدها فأنست اليه وتعلمت منه ونهلت من روحه الساخرة ما اشتهرت به فنانتنا العظيمة من خفة الدم وسرعة الخاطر وحلو الدعابة ، وصادق الثاني فسهرا معا اجمل ليالي العمر وتناظرا في (علم القافية والنكتة) ولا بأس من بعض المقالب الضاحكة يدبرها البابلي في رامي فيغضب رامي ويعتب الأصدقاء لأنهم ايضا (ضحايا) تلك المقالب ، وتمر الأيام وتبقى الذكريات ....

كان وهو يجلس مع اصدقائه في بار اللواء يطلق على اي دخيل تقيل عليهم اسم (حنفي) وحضر ذات يوم متأخرا قليلا واذا بدخيل بين الجماعة اي (حنفي) على حد اصطلاحه فلما قدمه احد الأصدقاء اليه وقال له الأخ حنفي افندي فقال البابلي : مانا عارف فرجع الصديق يقول : لاده اسمه الحقيقي حنفي .

فقال البابلي: يبقى اسمه حنفي افندي حنفي ....

* * *

وبينما كانوا جلوسا في بار اللواء اذا حنفي جديد يهبط عليهم ، وبعد قليل اخرج علبة سجائره وراح يوزع على كل الجالسين سيجارة لكل منهم ...

ونسي سهوا أن يقدم للبابلي ...

وقد تدارك الأمر احد الأصدقاء الجالسين ، واخرج علبته وراح يقدم

منها للبابلي بك . ولكن البابلي شكره وهو يشير بيده الى من اغفل تقديم السيجارة له ثم يقول: دخانك يا محمد بك حامي أنا عايز من البارد ده ...!

ومما يروى عنه انه كان يسير وراء نعش احد الأثرياء عندما أخذ أحد أصدقـــائه يحدثه عن عظمة الخشبة وقمـــاشها الحرير الشاهي ، وراح يستعلم منه عمـــا تتكلفه هذه الخشبة واذا بالبابلي يقول له على الفور: بالميت ... تلاتين أربعين جنيه ...

وكان والده قد أعد حوشا وتربة للآخرة واخذه ذات يوم ليشاهد المدفن وسأله بعد الزيارة عن رأيه في الحوش فقال له: الحقيقة بقى ... حاجه ترد الـــــــروح ..!!

* * *

أما المقلب الشهير الذي دبره في أحمد رامي وبقية افراد الشلة ، فقيل : انه قد دعاهم ذات ليلة الى المبيت في داره بعد قضاء سهرة حافلة ممتدة ، ولما كان قد بدد كل ما ورثه من أموال الاسرة ولم يبق لديه الا هذا المنزل ، فانه قد أخذ يبيع الألواح والاكر والأبواب واحدة بعد أخرى ، لذا فانهم قد دهشوا عندما اشتموا في الصباح روائح ذكية منبعثة من زبدة وبيض مقلي وبسطرمة حتى ظنوا أنهم يحلمون لرقة حال الداعي وقاموا جميعـــا ليفاجأوا بسماط ممتد حوى كل ما كانوا يتنسمون رائحته ، وبعد شرب الشاي والقهوة ارادوا أن ينصرفوا وبحثوا عن أحذيتهم فلم يجدوها فسألوا البابلي عنها فراح يضحك ضحكا متواصلا وهو يقول:

ـــ ما اكلتوها واللي كان .. كان ..!!

ـــ محمد دبشة ـــ

لعل دبشة الجزار يمثل واحدا من الجيل القديم الذي خلع رداء التباكي والأحزان ، وأخذ الحياة مأخذا سهلا لا سبيل فيه الى التواء أو غموض ..

فالذي يخطر على باله ، يقطر على لسانه ظرفا ومرحا ودعابة ....

زار مرة احدى الفنانات في دارها فوجد عندها رمانا ، وأبدى اعجابه بالرمان .. فقالت له:

— افرط لك رمان يا دبشة ..؟ فقال لها:

— فرطي لي في عرضك ..!

ويكتب عنه أحد أصدقائه ..

«في أحد الأيام حضر المعلم دبشة وجلس على مائدة قريبة منا . وكنا نعرف انه لا يقرأ ولا يكتب ، وأردنا مداعبته فكتبنا ورقة صغيرة ونادينا الجرسون وطلبنا منه تسليمها له ونفذ الجرسون ما طلبنا ، وقد أسقط في يد دبشة ولكن لماحيته وذكاءه كانا أسرع من فرحتنا فيه ، فقد استبقى الجرسون ، وراح يمصمص شفتيه متحسرا ثم أخرج قطعة فضية من فئة الخمسة قروش وطلب منه أن يسلمها لنا كما لو كنا سألناه احسانا ...!» .

ومن نوادره انه كان يمتلك دكانة جزارة بشارع التحرير الحالي وكانت صغيرة الى حد ملفت للنظر .. وذات يوم وقف أمام القاضي لاتتهامه بمخالفة التسعيرة ، وكان رئيس الجلسة بالمحكمة الجزئية أمضى سنوات عديدة بالمحاكم الجزئية مفضلا تخطيه ، على الا يغادر القاهرة ، ولما نودي على القضية ، تقدم دبشة ، فسأله القاضي ، اليس هو أنت صاحب الدكانة ...

وراح يشير بيديه اشارة يفهم منها ان الدكانة في حجم الكف وعلى الفور قال له دبشة:

— أيوه يا سعادة البيه الدكانة الجزئية . وقابل مرة احدى السيدات في ميدان سباق الخيل فسألها عن اسم الحصان الذي لعبت عليه ، فقالت له:

— اذا قلت لك اسم الحصان فهل تشاركني عليه .. فقال لها:

ـ انا موش عاوز أشاركك ...! انا عاوز أشارك جوزك ...!

مسك الختام:

ـ محمود السعدني(١) ـ

أجدني فيما بقي من سطور للحديث عن مدينة الظرفاء كمذيع التليفزيون الذي يضطر الى قطع برنـامج شيق حـال موعد الآذان أو انتهاء الوقت المخصص لهذا البرنامج لا لشيء سوى الضرورة التي أملت حكمها عليه ، هكذا حالي فيما أنا سائر فيه وأجد من قلمي قصورا عن تكملـة المشوار ، لا لان مدينة الظرفاء قد خلت منهم ولكن لان الحديـث عن تلـك المدينـة يحتاج الى مجلدات ومجلدات الامر الذي يضل بهذا الكتاب عـن مدار البحـث أو مساره وينأى بالقلم عن سطور مقصوده وأبواب معدودة تصدنا طرقها بالحاح، لذا فانني سأبلغ مشارفها غير متوقف بباب ظريف من ظرفائها ، سوى ذلك «الولد الشقي» الذي عاش حياته بالطول والعرض ، فكانت نموذجا مصغرا ومثالا نابضا ضاحكا لما يجري في «أم الدنيا» ..!

اننا سوف نتركه يضحكنا على شاكلته ويمزح معنا على طريقته فيما جاء بكتابه « الولد الشقي » ذلك أن السطور الاولى منه تسعدنا وتنقلنا الى عالم ضاحك لا اثر فيه لكلفة أو مداراة !

وهكذا اصبحت صحفيا فذات صباح مبكر من عام ١٩٤٦ خرجت مـن الجيزه « أسعى وراء طوغان الذي كان قد سبقني وجرب حظـه في صحف ومجلات كثيرة أغلقت كلها أبوابها » ..!

خرجت أسعى خلفه ببنطلون مجفف أخفت الجاكتة عورته ، وجـاكتة كاروهات كانت في الأصل بطانية ..!!» .

وبنفس الأسلوب الساخر يصف جهالة بعض الصحف: «.... يجوز

(١) هو الكاتب الصحفي محمود السعدني وله كتابات كثيرة في ادب الاعتراف بالمعنى الذي يقصده كتاب الغرب .

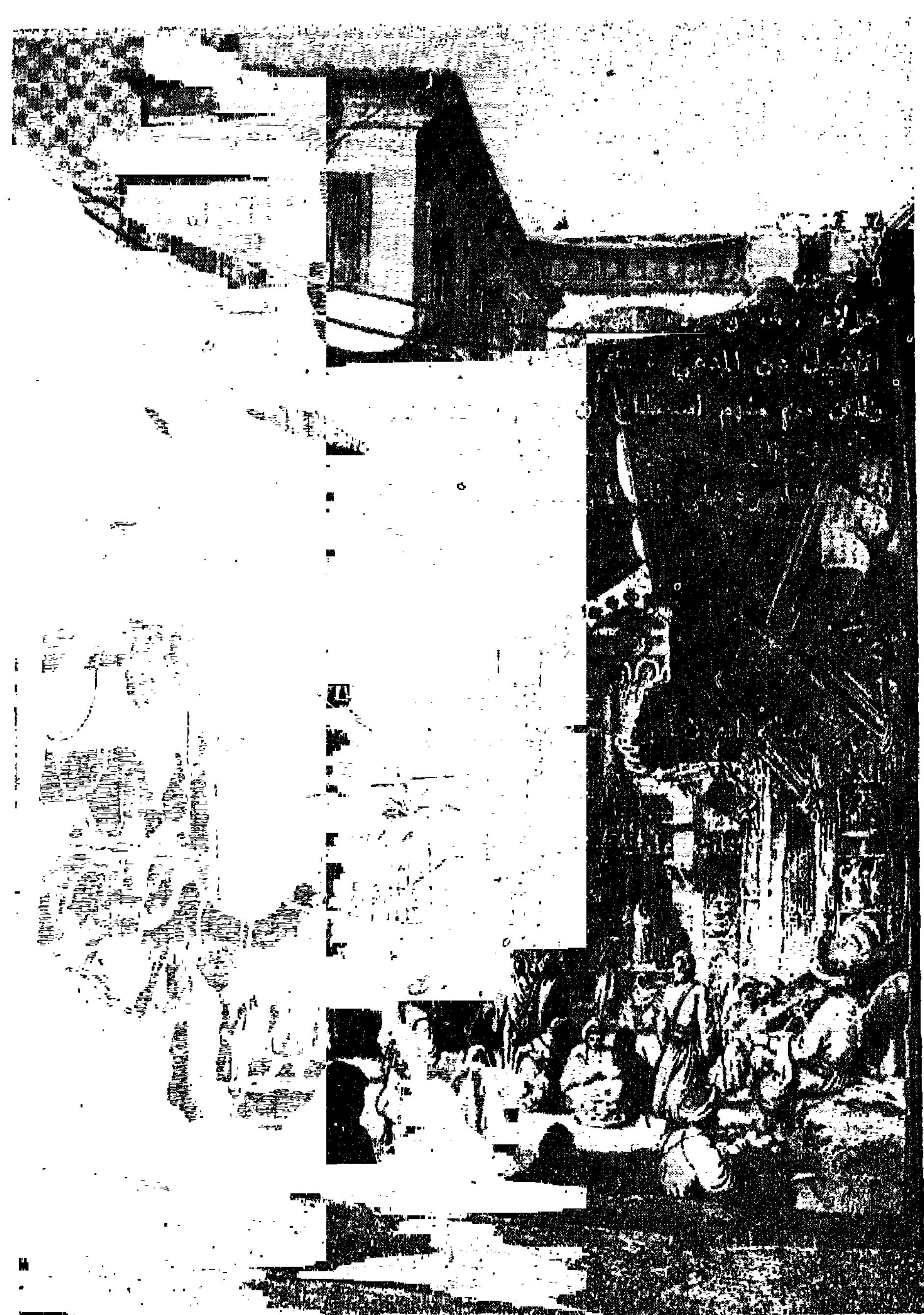
أن يرتفع كاتب رديء بوسائل رخيصة الى مصاف الكتاب العظام ، ولكن أن يرتفع رجل جهول يحتاج الى وقت طويل في فصول محو الأمية ، فهذا هو الشيء الذي لا يزال في حاجة الى تفسير . لقد نصحني مرة أحدهم بألا أشغل نفسي كثيرا بالكتابة .. «ارحم نفسك شوية ، ما انتش شايف طه حسين جراله ايه ، أهو فضل يكتب لحد ما عمي ..!!» .

ثم وهو يصف مغامرات ــ الولد الشقي ــ:

«.. كانت مغامرة ليس لها نظير ، وحماقة لا يرتكب مثلها الا المجانين أو المجرمين العتاة .. فلقد تعرفنا الى امرأة ليس لها شكل تجلس وحيدة في كازينو شهريــار ، وكنا عشرة شبان ورجلا عاقلا يعمل مدرسا في احدى الجامعات وكان شديد الخجل شديد الطيبة منعته ظروف أسرته المحــافظة وعمله المحترم وعمره الذي شارف الأربعين من أن تكون له أية مغامرة من أي نوع ولقد وجد في صحبتنا لونا من الحياة لم يألفه وان كان يتمناه ، وعوضته شقاوتنا عن استقامته التي كانت مضرب الأمثال ، وكان شديد المحافظة على المظهر في الخارج ، فاذا ضمه معنا منزل واحد بدا على طبيعته المرحة وسلك سلوكا يختلف تماما عن سلوكه الذي كان يبديه أمام الناس ، وفي تلك الليلة نصحنا بألا نقترب من المرأة التي كانت تجلس وحيدة وأكد انها تنتظر رجلا ، وهددنا بأنه سيغادر الكازينو اذا نحن أقدمنا على عمل طائش من هذا النوع ولكننا لم نستمع لنصيحته ، وقمت أنــا وغزالي وبعد لحظة كنا نجلس مع السيدة التي تجلس وحيدة ولم تلبث ضحكاتنا نحن الثلاثة أن ارتفعت تعلن للجمع المتربص بنا اننا في غاية الود والانسجام ...!

وسرعان ما غير الرجل الطيب رأيه فلم يغادر الكازينو ولم يحتج علينا ، بل أرسل الينا من يخبرنا اننا نستطيع أن نطلب ما نشاء من الطلبات وأنه سيدفع الحساب ...!

وبعد قليل نهضنا والست خارج الكازينو في طريقنا الى المنزل ، ولم يكن لدينا منزل كما لم يكن هناك منزل لدى أحد من الشلة التي تتعقبنا ورحنا نفكر أنا وغزالي في المكان الذي نقصد اليه ولم نهتد في النهاية الا الى بيت



أحد أسواق القاهرة القديمة

طالب أزهري اسمه الصيرفي كان يسكن وحده في الجيزة في شقة في بيت له مظهر البيوت الأنيقة رغم انه في الداخل لم يكن يحتوي الا على سرير شديد القذارة ومشنة عيش كانت دائما فارغة ، وثلاثة كراسي كانت كلها محطمة كأنها متخلفة من خناقة بين بعض الفتوات العتاة ..!

وكان الصيرفي نفسه شديد الغرابة ، فمنظره يدعو الى الاضحاك ، كان قصيرا ومشوها ويتكلم بالفصحى وبصوت عال كانه يخطب على الدوام . وكان سعديا متحمسا وهي ظاهرة شاذة تأملتها كثيرا ولكن لم استطع تفسيرها على الاطلاق ، فلقد كان هناك وزراء سعديون ونواب سعديون ، وشيوخ سعديون ، ولكن أبدا لم يكن هناك شبان سعديون .

كان الشباب موزعا تلك الأيام بين الوفد ، ومصر الفتاة والشيوعيين والاخوان ، وكان الصيرفي هو الشاب السعدي الوحيد الذي قابلته في حياتي ، وكنت دائم العراك معه ، شديد السخرية به ، هازئا من معتقداته ، متهما اياه بالرشوة ، اذ لا يعقل أن يكون الانسان سعديا بضميره ، خصوصا اذا كان شابا ، ولا بد أن يكون لهذا الموقف الغريب ثمن مدفوع ..!

واعتقد الآن ان موقف الصيرفي كان مدفوع الأجر ، وانه اذا كان زهيدا فلأنه كان دائم الشكوى من الافلاس ، وكان يبدو دائمـــا شديد الارهـــاق والشحوب ..

ولقد استقبلنا الصيرفي بفرح شديد ، وعندمـــا وقع بصره على المرأة التي معنا لمعت عيناه ببريق غريب ، واستقبلته المرأة بفتور وباحتقار شديد ، فقد كان يرتدي جلبابا مخططا وحافي القدمين ، وكانت فانلته تبرز من فتحة جلبابه وكان فيها من الثقوب أكثر مما فيها من القماش ..

واعتقدت المرأة انه خادم في المنزل وعاملته طوال السهرة على هذا الأساس ...

ولم تلبث شلة الاصدقاء ان اقتحمت علينا المنزل . وكعادة الفقراء اردنا أن نزيف الواقع المر وأن نخدع أنفسنا ، وأن نضفي على الجو مسحة من

الشاعرية والخيال واكتتبنا جميعا لنحصل على زجاجة رخيصة من الكونياك الرديء ، ومن جهاز الراديو العتيق الذي تعشش فيه الصراصير رحنا نستمع الى موسيقى حالمة ، وصعد غزالي على أكتاف أحدنا ولف حول لمبة النور قطعة من الورق الأحمر ، ورحنا نسهر فرحين في هذا الجو الهزيل ، جو كلما تذكرته الآن اقشعر بدني من هول ما كنا فيه ، جو تجتمع فيه امرأة صايعة قبيحة وعشرة شبان ورجل رزين وزجاجة خمر رخيصة وراديو كان لا يواصل الغناء الا بخبطة يد قوية تهزأجهزته العتيقة التي تود أن ترتاح من هذا الشقاء اللعين ..!

المهم ان السهرة اكتملت ، وعندما جاء الصباح كان علينا أنا وغزالي ان نواجه الموقف الصعب ولم يكن معنا سوى ستين قرشا هي كل ما مع الشلة من نقود ، خمسون قرشا دفعها الرجل الرزين وعشرة قروش هي كل ثروة الآخرين ..!

كانت المرأة تقف أمام المرآة تسوي شعرها وتغنـــــي بصوت مسلوخ اغنية شائعة،وكان الصيرفي يقف في ركن الغرفة محموما وعيناه مصوبتان نحونا كأنهما فوهتا بندقية مستعدة للاطـــلاق والسبب ان المرأة الصايعة رفضت بشدة أن يختلي بها الصيرفي وكان هذا طبيعيا من جانب المرأة ، فهكذا الفقراء دائما يريدون في أي مناسبة أن يؤكدوا لأنفسهم أن هناك من هم أفقر منهم ، وهكذا الحقراء أيضا يريدون أن يثبتوا ولو لأنفسهم أن هناك من هم أحقر منهم ..

وكانت تلك الليلة هي فرصة الست الصايعة ، ولقد أصرت على موقفها وظلت متمسكة برأيها لا تتزحزح ، ورغم التوسلات والشفاعات فانها رفضت بشدة ، وبدا عليها في لحظة انها مسألة مبدئية ، وانها على استعداد لتواجه الموت في سبيل هذا المبدأ العظيم ...!

ولما ضاعت كل المحاولات عبثا ، قررنا تجاهل الأمر تماما . واتفقنا على ضرب الصيرفي لو أعترض طريقنا أو حاول أن يقوم بحركة انتقام من أي نوع ...

وكانت المراة الصايعة قد أنتهت من زينتها عندما اقبلت علينا تتمايـــل كأنها ممثلة سينما . وبدت تلك اللحظة بشعة كفوريلا مزوقة . ووقفت أمامنا فجأة ومدت يدها تطلب النقود وهمس غزالي في اذنها ان الحساب سيتم في الخارج وليس أمام الصيرفي الغاضب المتحفز المطعون في كبريائه ولكن الست رفضت بشدة أن تتزحزح خطوة الا بعد أن تحصل على النقود ومد غزالي يده بالمبلغ الموجود . ولكنها شهقت وتقصعت والقت بالمبلغ علىالارض وطلبت عشرة جنيهات لا تنقص مليما والا فالويل والثبور وعظائم الأمور ..!

وضحكت أنا وغزالي ، فلم نكن في هذه اللحظة قد راينا عشرة جنيهات كاملة ، وكان اليوم آخر شهر ولو اننا فتشنا الجيزة كلها فلم نكن نعثر على عشرة جنيهات ...!!

ولقد كنا متعبين للغاية بعد أحداث تلك الليلة الحافلة ... ولم نكن قادرين على النقاش كما اننا لم نكن مستعدين لمواجهة امراة متنمرة وفي بيت رجل اكثرتنمرا ...!

ولذلك ــ وبدون أتفاق ــ فتحنا الباب فجاة بعد أن جمعنـــا النقود المبعثرة على الأرض . وانطلقنا هاربين الى الشارع ، ولكنا لم نبتعد كثيرا حتى توقفنا في عرض الطريق نستمع الى الصراخ الذي انبعث من داخل المنزل ، ولم يكن الذي سمعناه هو صراخ المراة . ولكن صراخ الصيرفي ، هذه اذن نهاية الصيرفي في هذا اليوم المشؤوم ...! ليلة معذبة بالنسبة له ، وصبـــح أغبر ..! ولكن الصراخ لم يلبث أن تلاشى ثم هدأ كل شيء وتوقعنا أن تخرج المراة ولكنها لم تفعل .. ولما طال غيابها جلسنا على قهوة الحريري القريبة وطلبنا افطارا وشربنا الشاي ، واشترينا علبة سجائر كاملةهـــب ـع ـض في هدوء ... كأننا نستقبل يوما جديدا من أيام الحياة في ثقة زائدة .

وفي الظهر خرجت المراة الصايعة ومعها الصيرفي ووقف معها على محطة الترام حتى ركبت ولما انطلق بها الترام رفع يده يلوح لها كأنه صديق يودع صديقته العزيزة وهي تبدأ رحلة ميمونة الى باريس .. اغرب شيء ان الست

الصايغة لم تنقطع عن الجلوس في كازينو شهريار ولكنها كانت كلما رأتني أنا وغزالي أشاحت عنا بوجهها رغم أن الرجل الرزين استاذ الجامعة قد تنازل عن كبريائه وتجاهل مركزه الاجتماعي وقضى معها ليلة بأكملها في الكازينو يعتذ لها . ثم اختفت الست من حياتنا ومن الكازينو بعد ذلك ، ثم علمنا انها تزوجت !

وممن ؟؟

من استاذ الجامعة الرزين نفسه ..!! ودنيا عجيبة وواقع .. ولكن أغرب من الخيال ..!

وليست تلك الليلة اعجب ما في حياة السعدني فاذا كانت الست الصايغة قد احتقرت الصيرفي فانه على أي حال قد سجل هدفا رائعا في النهاية ، بعكس ما حدث للسعدني نفسه في ليلة اخرى بسبب عبارة طائشة أغضبت احدى «مناضلات» حزب النهضة ...

«ولقد ناضلت طويلا داخل هذا الحزب حتى وقعت ذات مرة في امرأة مناضلة من مناضلات الحزب ، كانت في الأربعين من عمرها ، ولكنها كانت تبدو أصغر سنا ، وكانت جميلة حقا وخفيفة الدم الى درجة تجعل من يراها مرة لا يستطيع أن ينساها أبدا ..!

وكانت متزوجة اكثر من مرة ، ولكن عندما عرفتها كانت وحيدة وكانت قد هجرت زوجها الأخير منذ شهر واحد ، وحكمة الله أن جميع أزواجها كانوا من العجائز الأثرياء ، ولقد خرجت من كل صفقة زواج لها بربح مادي كبير ، فأصبحت هي الاخرى من كبار الاثرياء وكان لها نفوذ كبير داخل الحزب فقد كانت تمده بالمال ، وكانت تقيم الولائم لعضواته وهي ولائم كانت تجمع بين الكرم والترف . وكانت هذه الحفلات السياسية الهامة فرصة للتعارف بين الجنسين ..! وذات حفلة كنت أتوسط حلقة وكانت السيدة صاحبة البيت تجلس في ركن قريب ، عندما أصدرت فتوى خلاصتها ، أن المرأة تفقد سحرها بعد سن الخامسة والعشرين ، وكان رأيا فجا من شاب صغير عديم

التجربة والخبرة ، ولكن المرأة الثرية المجربة اخــذت المسألة مــأخذ الجد فاقتربت مني وزجرتني بنظرة حادة ثم تجاهلتني بقية السهرة ، وقررت أن أختفي من دار الحزب ، ومن حفلات السيدة الثرية ، ولكنها التقت بي مصادفة فدعتني الى منزلها وسألتها في سذاجة:

ــ هو فيه حفلة النهار ده ..؟

وأجابت هي بالايجاب ووعدتها بتلبية الدعوة ، وحلقت شعري الذي كان يغطي قفاي كالخنافس ولمعت الحذاء مرتين وحرصت على أن اقترض ربطة عنق ملائمة وتوجهت الى الحفلة وفي نيتي أن اقع على صيد ثمين يعوضنـــي جفاف الأيام التي مضت مني ..!

ولم اكتشف انه لا حفلة هناك ولا يحزنون حتى بعد أن دخلت المنزل ، وجلست وحيدا في حجرة الصالون أنتظر قدوم الست المضيفة وعندما حضرت غندورة كالعهد بها ، رائعة الجمال كأنها تمثال في متحف ... سألتها عن سر تأخر الضيوف فقالت في بساطة:

ــ مفيش ضيوف غيرك الليلة ...

وشعرت عندئذ انني على أبواب مغــامرة لذيذة ، وانني مقبل على القيام بدور لم يسبق لي القيام به من قبل ..!

وجلست أمامي تصب خمرا في كأس وهي في ثوب شفاف يكشف عن مفاتنها وراحت تتحدث حديثا فياضا في السياسة والأدب والعلم وسرعان ما طردت الخاطر السيء الذي راودني ، وشرعت في الحديث بطلاقة ورحت أرغي كأنني بالع راديو في أشياء شتى ، ولكنها فجأة ضحكت وجذبتني من شعري نحوها وانحنت فقبلتني وقالت وهي تضحك:

ــ دمك خفيف يا مضروب ..

وانتهزت الفرصة كأي ساذج وجذبتها نحوي انا الآخر ، ورحنا نتبادل

القبلات والعناق ..! ولما كنت وتتئذ في العشرين وهي في الأربعين فقد كنت أصدق منها في التعبيرعما يجيش بصدري وكانت هي اقدر مني على قيادة نفسها بحكمة وحنكة ومعلمة ليس لها نظير ، وعندما هممت بهـا ردتني في لطف .. ثم ردتني في عنف ... وانكسفت كما بنت بكر فاجأها شاب عابث في الطريق. واعتذرت لها عن سوء سلوكي وقلة أدبي وفساد ظني ...وقبلت الاعتذار على الفور ثم فتحت حديث آخر جاد غاية الجد ودخلت أنـا الاخـر في موجة الجد التي شملتها ولكنها بعد قليل ضحكت ضحكة اشملتني ثم مدت يدها وقرصتني ومددت يدي أنا الآخر وبادلتها القرص ، ثم احتضنتها بشدة وقبلتها كالمجنون ثم هممت بها ، ولكنها مرة أخرى ردتني في لطف ثم ردتني في عنف ، ثم انبتني بشدة على مسلكي المتوحش ، واعتذرت لها مرة اخرى وجلست مكسوفا كتلميذ راسب عدة أعوام في مادة واحدة ..! وقبلت السيدة الكريمة اعتذاري ثم راحت تصب لي كأسا اخرى ، ومع الكأس راحت تتحدث في السياسة .. وتكرر المشهد بعد ذلك أكثر منمرة ، تبدأ هي بالمناغشة ثم ابادلها ثم اندفع أكثر ثم اقفز محاولا الوصول الى آخر الشوط .. ثم تنهرني في شدة وتنهاني بعنف ثم اجلس مكسوفا واعتذر ... وحتى الفجر كنت قد اعتذرت عشرين مرة ، وأدركت انني لعبة الست الكريمة تلك الليلة وانها ترد على رأيي بأسلوب عملي ، لكي اتعلم الادب في الحديث في المستقبـل .. كان الفجر على الأبواب عندما غادرت الفيلا سكرانا حزينا شديد الهم مكسوفا ، اكاد أطلب من الأرض أن تنشق لتبتلعني وتخفيني بعيدا عن الأنظار ..!

ولقد ظللت أعواما طويلة اغضي من بصري كلما واجهتها في أي مكان ، ثم تحاشيت لقاءها بعد ذلك ، ولم ينقذني منها الا اختفاؤها هي نفسها من الحياة العامة ولكن الدرس الذي علمتني اياه كان رهيبا وقاسيا على نفسي ، ولقد اثر في نفسي الى حد انني جبنت عدة سنوات عن أن أخطو الخطوة الأولى مع أي امرأة ، وفقدت الثقة بنفسي الى حد انني كنت أخشى مغازلة أي امرأة ولو كانتخادمة خشية أن ترفضني بشدة ، ولم تمسح المرأة الخبيثة نفسي بالنسبة لها فقط بل انني كنت أخشى النظر في عيني أي سيدة في حزب النهضة فقد كنت اعتقد انها قصت قصتي لكل من تعرفهم .. وعدت الى

دار الهلال مهموما قلقا أريد أن أهرب من الدار ومن القاهرة ، وخطر لـــي أن اغادر مصر كلها على ظهرمركب وفعلا رحت اسأل كل من القاه عن أسلوب العمل في المراكب .. وهل أصلح أنا للعمل في المراكب خصوصا وانني معتل الصحة ..؟ وهل يوجد على ظهر المراكب عمل خفيف لائق ..؟ ثم تخليت عن هذه الفكرة عندما استطعت أن أمسح من ذاكرتي أحداث تلك الليلة الرهيبة ..

مدينـــة الليـــل

في طفولتي كنت (شهريارا صغيرا) أسمع في كل ليلة قصة جديدة ، أو حلقة من قصة لم تكتمل فصولها بعد والا فالويل والثبور وعظائم الأمور ، فلقد عودتني والدتي على سماع القصص العجيبة النادرة كأمنا الغولة والشاطر حسن وعقلة الصباع ونص نصيص الى آخر تلك القصص التي «ترضي غروري» وتحلق بخيالي الصغير في عوالم مسحورة ..!!

والحق انني كنت أعتبر قريتي الصغيرة هي نهاية العالم وان ما يحيط بها لا يعدو أن يكون دنيا عجيبة من البحور والجنيات والسباع ووحوش الغاب تلك التي عاشت فيها «أمنا الغولة» والشاطر حسن وغيره من أبطال الأساطير ....!!

وعندمـــا كبرت «بعض الشيء» تولى شقيقي الذي يكبرني بـــأعوام مسؤولية تسليتي وتثقيفي وتعريفي بعوالم الواقـــع ، ومن ثم بدأ يحكي لي قصصا عجيبة أخرى ولكنها قصصا تمتزج فيها الاثارة والغرابة بالواقعية ودنيا المحسوسات ، فلا زلت أذكر ما قاله لي ذات يوم من أن القاهرة : هي أم الدنيا وقد وصفت كذلك لأنه لم يجتمع لمدينة أخرى من مدن العالم هذا القدر الهائل من الغرائب والمتناقضات مثلها ، ففيها الأهرامات وأبو الهول وهما من عجائب الدنيا السبع ، والقصور الرائعة والدور ذات الشرفـــات والمشربيــــــات والعمارات الشاهقة والميادـــين الواسعة والازقة والدروب الملتوية تلك التي يعيش أهلها حياة «بوهيمية» في جملتها ، أيضا يعيش بين أهلها ملك وأمراء وحراس وديدبان ودراويش ورهبان ، ذلك ان الحياة فيها

اما ابيض أو أسود ..!! فبينما يتضور الشحاذ جوعا على باب راقصة من راقصاتها نجد ثريا من أثرياءها يقبل تدمي تلك الراقصة ويشعل لها سيجارتها بورقة من فئة المئة جنيه ..!! بل ان راقصة ارادت أن تغيظ غريمة لها فأمرت الصائغ ان يصنع لها حزاما من الفضة فما كانمن الاخرى الا أن أمرت ذات الصائغ ان يصنع لها حذاء من الذهب ....!!

ورغم طرافة تلك القصص الا انني لم اكن أمل الى تصديقها ، فمن هذا المخبول الذي يشعل سيجارة لعشيقته بورقة من فئة المائة جنيه ولو كانت تلك العشيقة أو المحبوبة حورية من حوريات البحر ....!!!

وهل يتصور أن يبلغ الغنى براقصة للدرجة التي تقدر فيها على شراء حذاء من الذهب ..؟؟ (ربما) ..! كان في القاهرة أهرامات وأبي هول وطرائف وعجائب .. منطقي أن يوجد فيها كل تلك الاشياء .. ولكن الذي ليسمنطقيا أو معقولا بالمرة أن يشعل عاقلا سيجارة ليس بعود ثقاب أو قداحة فضية أو حتى ذهبية ولكن بورقة مالية كانت تعتبر وحدها ثورة في تلك الأيام ..!!

وأنى لي أن أصدق تلك الاقاويل وقد كنت أرى بعيني رأسي أجمل غوازي الصعيد يرقصن في حجور الفتوات في أفراح قريتي بقطعة فضية من ذات العشرة قروش أو ثلاث شلنات على الاكثر بل ان ناعسة المزاتية (١) كانت ترقص وتغني ليال ثلاث عندماتستقدم في فرح بعشرة جنيهات لا تزيد ..!

اذن فشقيقي هذا كان كما يخيل لي أيامها مهولا ومبالغا ومخرفا الى حد كبير ..!! ولكن ....!!

شاء القدر أن تكون اقامتي في القاهرة وأرى ان ما كان يحدث به شقيقي عن دنيا العوالم في «أم الدنيا» لا يعدو في مجمله أن يكون وصفا قاصرا وقصصا

(١) ناعسة المزاتية اشهر عوالم الصعيد في الخمسينات وهي من قرية مزاته شرق باولاد طوق بالصعيد وتلك القريـــة تبعد عن مزاته عـــزب بلدة المؤلف بالاف الكيلومترات وانما هو تشابه اسماء الا ...

بالغة السذاجة لما هو حادث أو يحدث فعلا في ليل تلك المدينة . . !!!

* * *

وكالعادة ينام الشرفاء والفقراء والكادحين عندما يرخي الليل سدوله ويستيقظ اللصوص وسمار الليـــالي والمبذرين يقضون ليلهم الطويل حول الموائد الخضراء وزجاجات الشامبانيا او في علب الليل بين الكأس والطـــاس والرقص (والدانس) والاجسام التي من كثرة عري صويحباتها يخيل اليك انهن من ضحايا طوفان أو مجاعة من مجاعات الهند أو ريح «ترتر» عاتية من تلك التي تجتاح هذا البلد بين حين وآخر فتشرد أهليها وتتركهم على الأفاريز اكواما من اللحم لا يجدون ما يستترون به . . !!

ولكن . . !!

اي عري هذا . . ؟؟ ايمكن لراقصة أن تتعرى ورصيدها في البنك مليون جنيه نقدا وعدا ومثله مجوهرات واسترليني . . . ؟؟

أيمكن لراقصة أن تتعرى وهي ترقص كل ليلة على بساط من أوراق البنكوت . . !!؟؟

ان مجرد اشارة أو ابتسامة أو استجابة لمغازلة مليونير عربي يمكن أن تفتح لها «طاقة سحرية» . . !! شقة تمليك في مدينة المهندسين أو قصرا في جاردن سيتي أو فيلا في الزمالكبحديقتها وطاقم خدمها ، ولا بأس من سيارة «شيفروليه» على آخر طراز ، أما الزوج ـــ ان وجد ـــ فهو طالق ثلاثا اذا ثار لكرامته واذا رضي فاهلا به في عربة أجرة تتسع دائما لأكثر من واحد . . !! وعلى سبيل المثال فان زيارة واحدة لكباريهات شارع الهرم كفيلة بأن تعطيك صورة واضحة لما يجري في «قاهرة الليل» من أساطير . .

لقد اضطررت لكي اثبت ان «أم الدنيا» ليست فقط مدينة الألف مئذنة والأولياء الصالحين بل هي أيضا مدينة المتناقضات والليل والاعاجيب اضطررت لكي اثبت هذا أن اصحب المصور واتجول في شارع الشامبانيا والفلوس

والناموس والأتوبيسات التي تتحول رغم ثراءه الى خلايا نحل أو علب سردين ، فهذا الشارع وهذا هو الغريب فيه يبدو فقيرا متقشفا في نهاره ، وثريا أرستقراطيا بليله ..!

اننا لو تخيلناه «رجلا» لكان افاقا بفقره وزهده وتكبيرات المآذن في نهاره ، حتى اذا جن الليل لبس لبوس الاثرياء وسمعت في أرجائه موسيقى الجاز وقرعات الكؤوس وصرخات الخنافس ..!!

ان أصغر عامل في أي كباريه من كباريهاته يحصل على بقشيش يفوق مرتب عدة وزراء مجتمعين .. لقد اضطرني منظر أحد الجرسونات في «كازينو الليل» الذي تمتلكه المطربة شريفة فاضل ، اضطرني بوجهه التفاحي وشاربه «الكيرك دوجلاس» ورشاقة قوامه وحركاته ولفتاته أن أهرع بعدها الى (مدينة الفسطاط) لالتقط صورة «لحماد» العامل الفقير صانع الفخار الذي نحل جسمه واصفر وجهه وتحجرت قسماته لطول عشرة بالطين ..!

ان حمادا لايزيد أجره اليومي على ستون قرشا ينفقها على والدة ضريرة وأب عجوز «ونصف دستة» من الأطفال ..!!

ولكن .. ليه نتحدث عن الجرسون ونخوض من اجله في حديث طويل ..

أليس من الأفضل أن نتحدث عن كازينو الليل نفسه كواحد من أكبر الكباريهات أو العلب الليلية في هذا الشارع ...!؟

صدق أو لا تصدق ..!!

عشرة جنيهات كاملة سوف ألقيها في البحر ، عشرة جنيهات تقيم أود اسرة فقيرة شهرا كاملا اشعلها هكذا بعود ثقاب ...!!؟

هذه العبارة وأشباهها قلتها في نفسي وأنا أتحسس ما معي من نقود أمام شباك التذاكر ..

ولي العذر .. فلقد كنت أعتقد «بغفلتي» وعدم تجربتي ان انفاق مثل

هذا المبلغ يمكن أنيضعني في قائمة السفهاء الذين وصفهم الله في محكم آياته بأنهممبذرين اخوان الشياطين ...!! والحق اقول انني وجدت نفسي مشدودا الى الداخل بسلاسل من حرير ..!

فهذا فريد شوقي يدخل متأبطا ذراع زوجته التركية ... وهذه الموسيقى تدق بعنف ..

وتلك صراخاتالبيتلز والخنافس تزداد حدة وهياجا لكأنهم شياطين يتعذبون في جهنم ..!

الاعلانات داخل الفاترينات الزجاجية ـ تعلن عن سهرة ممتعة مع « سلطانة الطرب » شريفة فاضل ..

عزف على الأورج بقيادة مجدي الحسيني .

سهير زكي .... أحمد عدوية ..

فكاهة .. اكروبات .. العاب سحرية ..

كل هذه المغريات اذا أضفنا اليها عشرات الفاتنات ذوات الوجوه البدرية ، والفساتين فوق الركبة والبنطلونات تحت الجلد ...

كل هذه ، جعلتني أتقدم في جرأة ملاكم الى شباك التذاكر وكأنني قد أصبحت دون جوانا عصريا أو زير نساء وأنا لم أزد على كاتب وجد في هذا «العالم» مادة مثيرة وموضوعا شيقا يصلح للكتابة عما في القاهرة من غرائب وعجائب ....

المكان غارق في الظلام على سعته بعكس المسرح الذي يبدو من شدة الأضواء المسلطة عليه وكأنه بيت ريفي تشتعل فيه النيران ..!!

ولكي تكون معنا في «الصورة» فان الكازينو بالداخل مكون من طابقين ..

الأول عبارة عن صالة فسيحة الأرجاء صفت فيها كراسي حديثة وثيرة يتقدمها صف دائري حول المسرح أو حول خشبة المسرح يقال له «البست» ويجلس فيه عادة كبار الاثرياء العــرب والمصريين والممثلين أمثال فريد شوقي الذي شرف الليلة وكذا العرائس بفساتينهن البيضاء كزهرات الياسمين .

حيث جرت العادة على أن يصطحب العريس عروسه في ليلة الزفاف ويذهب بها الى مسرح أو كباريه يقضيان فيه شطرا كبيرا من الليل في صحبة جوقة من النساء يزغردن لهما اثناء الدخـــول والخروج فتستديــر الرقاب ملتفتة الى العروس التي تبدو غاية في « الكسوف » وكأنها أجبرت على المجيء مع فارس الأحلام .....!!

أما الطابق الثاني ، فيتكون من صف دائري من مقاصير خصصت لجلوس الأمراء العرب وكبار المليونيرات ..!

الساعة الآن: منتصف الليل ...

أو بمعنى أدق فان الليل ها هنا ما يزال في أوله ولكن فرق كبير ما بين ليل الفقراء والمعذبين الذي يبدو كقطار يجر الآلام والجراح وليل هؤلاء الناس بخمره وعطره ودخانه وذهبه الذي يتطـــاير في الهواء ويستقر في جيب «السلطانة» ...!!

الانحناءات والفلاشات تملأ المكان ..!

انحناءات الخـــدم والجرسونات الذين يقبضون ويحيون وينصرفون والفلاشات التي تطير في الهواء وتستقر كالصواعق فوق المسرح أو على وجوه الجالسين من زبائن البست .

وأنا ما زلت اتخفى مع صاحبي في الصف الأخير أو السبنسة قدماي تغوصان في السجاجيد التي تبدو لطول وبرها كحشائش السافانا ..!!

فريق من الخدم يروح ويجيء حاملا صحاف الفراخ المشوية والديكة الرومية وسلال التفاح ...!

وفريق ثان ، يحمل زجاجات الويسكي والشامبانيا وصنوف المشهيات .

وفريق ثالث خصص لخدمة الزبائن في صف «الترسو أو السبنسة» والذي أنزل ضيفا عزيزا عليه ، ولكن يبدو حتى أن هذا النوع من الخدم لم يخصص لامثالي ، فأنا أريد شايا ، وبالتحديد شايا ثقيلا ولكني كنت كمن يؤذن في مالطة ، بل انني لو كاشفت الجرسون برغبتي هذه لكنت كمن يطلب عرقسوسا في «قهوة» الفيشاوي ..! فالذي يحمله مجموعة من علب السفن أو البيبسي ثمن كل واحدة جنيهان ، بعبارة أوضح فانني لو طلبت علبتان لي وللمصور فسأدفع أربعة جنيهات كاملة والا فسأحمل على الأعناق الى أقرب قسم بوليس ..! اذن فلأكظم الغيظ وأنسى .. وفعلا نسيت الشاي ونسيت نفسي عندما ظهر «متقال الصغير» على خشبة المسرح وشابا صعيديا أخذ يتنطط ويصفق مشجعا هالة الصافي التي كانت تتقمص دور غازية من غوازي الصعيد بالمنديل أبو قوية المطرز بجنيهات ذهبية والجلابية السوداء الموشاة بالترتر وريش الطيور ، وفجأة وقف شابا من زبائن البست وبيده زجاجة ويسكي وبالأخرى رزمة من أوراق البنكوت الحمراء وأخذ يترنح محاولا أن يرقص فابتسمت له هالة ومدت له ذراعيها أن «تعال ..!!» فأخذ يجر ساقيه المخمورتين ويسير اليها حتى اذا أدركها اشتد فرحه ودس في صدرها رزمة الأوراق الحمراء ومن ثم احتضنته وأخذت تعلمه الرقص على أصول النغمة ..!!

وعاد (صاحبنا) واختفت هالة ، ليجيء دور أحمد غانم ، وأحمد غانم منولوجست خفيف الدم ولكن لسبب لا أدريه تحول في هذه الليلة الى «واعظ نشيط» أو مصلح اجتماعي أخذ يخطب في جمهرة الجالسين من الرواد والمصريين «.. الواحد لما يجي يتجوز يدور على واحدة مصرية أو عربية من جلدته ، من لحمه ودمه ..! واحدة تكون مصرية ، كويتية ،

سعودية ، بحرانية ..! المهم تكون عربية ، ايه الفايدة يجيبها خواجاية من لندن وباريس .. متعرفش تحشي له الكرنب ..!! متعرفش تعمل له المسبك والمشبك ..!!

حتقوللي خواجاية جمال ونضافة وظرافة ..!؟ اقولك ... آه لكن تمثال .. تمثال جميل خالي من الروح والاحساس ..!» .

وليت الأمر اقتصر على هذا ولكن ما أن فرغ من هذا الوعظ أو ذلك الارشاد حتى دخل في محاضرة عن تحديد النسل وعواقب المشي البطال كقوله «يا خواتي .. الزمن مش غدار الواحد منا يستهتر بصحته وشبابه .. يفضل يلعب بديله .. يسهر ويشرب .. يلف يمين وشمال .. وهب ..! يلاقي نفسه عجوز ومكحكح ..!!

والسبب ايه ..!؟

السبب: انه استهتر بصحته وعافيته ..!

يا خواتي الصحة تاج فوق رؤوس الاصحاء ..!!

المهم انه بعد هذه الخطابة المنبرية تنبه الى واجبه فبدأ يهز أكتافه ويرقص ، ثم يتوقف ليلقي نكتة من «وكالة البلح» ثم يعود يرقص ويتوقف ليلقي نكتة أخرى وهكذا حتى انتهت نمرته ..!

وبالطبع فانني لم أندهش من تصرفه هذا فأنا أعلم انه لم يجيء الى هنا ليتحول الى (شارلي شابلن) كما انه لم يجيء ليتحول الى امام زاوية ، ولكن الذي أثار دهشتي خروجه من الصفقة بنصيب الأسد ، فلقد حصل في العشرين دقيقة التي أمضاها على المسرح على ما يزيد على خمسمائة جنيه ..!! ثلثمائة عبارة عن عقد صغير «من أوراق البنكوت الحمراء طوقه به أحد المعجبين ومائتين «فكة» أهداه اياها أطفال عرب من أجل الحصول على صور تذكارية معه ...!!

خمسمائة جنيه في عشرين دقيقة تعني ببساطة مرتب رئيس دولة أو وزيرين أو خمسة مديرون عامون في شهر كامل .. وهذا هو الحال في « أم الدنيا» .

فاذا كان الغني يزداد مع الأيام غناه في المجتمعات الراسمالية والفقير يزداد فقره ، فان المتسلقين وأصحاب الدخول الطفيلية يزدادون ثراء في القاهرة ، والشرفاء الكادحينيزدادون فقرا فيها ..!!

الشرفاء الكادحين ، يقفون في طوابير «أزلية لا نهائية» أمام الجمعيات التعاونية وتبني لهم مساكن بأعشاش الصراصير أشبه ، بل ويسكنون مع الموتى في القبور ..!!!

وأصحاب الدخول الطفيلية يرحلون كالطيور المهاجرة الى لندن وكابري في الصيف والمشاتي العالمية في الشتاء ..!!

لقد كنت قبل مجيئي الى هنا كالضرير ، يتوكأ على عكـــاز ، يتحسس أشياء ويسمع عنأشياء لكنه لا يراهـــا ، ولكنني الآن قد صرت مبصرا ، الحقائق تبدو من حولي عجيبة مثيرة . عشرات الاسئلة كانـــت تدور برأسي بلا جواب ، فقط كنت أتمنى الاجابة على القليل منها .. ولكن ها هي الآن كل الاجابات على كل الاسئلة تبدو وافية بـــــلا طلاسم أو رموز ..! اذن فلأستعد وليستعد المصور الذي صحبته معـــي ليلتقط صورا يسيل لها لعاب القارىء ففي تلك اللحظة كنت كمن يرى طيور الشاطىء ..!

أحمد غانم قد حصل على ٥٠٠ جنيه وهالة الصافي حصلت على الف عندما رقصت وعجنت عجين الفلاحة ..!!

فيا ترى ما الذي سيحدث بعد ذلك ، لقد رأيت حتى الآن عجبا ، فهل هناك ما هو أشد عجبا وأكثر غرابة ..!!؟

في الحقيقة ، كان العقل يقول: لا .. واحساس في داخلي يقول: نعم ..!! وحالا تأكد هذا الاحساس كحلم يفسر عندما ظهرت سهير زكـــــي

على المسرح عارية الا من ورقة توت وغلالة حمراء شفافة على جسدها المرمري المثير ..!!

الموسيقى تدق بعنف .. وسهير ترقص ، وان شئت الدقة فان كل قطعة في جسدها ترقص ، شعرها الطويل ، وصدرها الذي يعلو ويهبط كموجة ثائرة ، وجهها البدري وثغرها الباسم ونهديها اللذان يلهوان على صدرها كتوأمين يسبحـــان في حوض من المرمر .. فخذيها وسيقانها .. قدميها الجميلين العاريين ، أغرب شيء انني شعرت بحركة غير عاديـــة في الصفوف الأمامية ، كل شخص مشغول بشيء في يده ، بعضهم يكلم الآخر ويسأله عن شيء بصوت مسموع : هات الابرة يا سلمان .. شو بدك يـــا عمران .. هات الابرة والخيط هانسوي هالعقد ... قلـــت اصبـــر أما أسوي عقدي أنا الأول ..!! لغط كثير وكلام من هذا القبيل جعلني اقف متطلعا لارى ما يحدث ، ولدهشتي رأيـــت حفنة من الشبان العرب قـــد جاؤوا ومعهم رزم الأوراق الحمراء وابر وبكر خيط ليصنعوا منها عقودا من أوراق البنكنوت،ومن لم يأت بالخيط أو الابرة اخذ ينادي صاحبه كي يعيره،احداها ليصنع هو الآخر عقوده ..!! وبالطبع فان الورقة في اي عقد لا تقل عن عشرة جنيهات والا اعتبر صاحبها سبة أو وصمة عار في جبين اصحابه ...!!!

المهم انهم بعد أن صنعوا عقودهم وقفوا في طابور طويل كل ينتظر دوره ليلبس الراقصة ما صنعته يداه ..!!

جلست فاغر الفم عاجز عن النطق بينما راحت يدي تلكز المصور بعنف كأنما أقول له: «شوف شغلك» ولم يكن بحاجة الى هذا اللكز العنيف المستمر فقد أسرع يحمل الكاميرا والفلاش ليلتقط صورا لهذا المنظر الفريد ، ولكن كان قد سبقه اثنان من البلطجية فانتزعوا منه الكاميرا يريدون تحطيمها ، ولما أسرعت أسألهم عن السبب ، قالا لـــي بغلظة : ان تعليمـــات «الست» تبيح،تصوير أي شيء عدا النقوط ..!

قلت في نفسي: منطق ..!

فاذا كانت «السلطانة» قد اباحت المشاهد الخليعة وزجاجات الخمر المهربة ، الا انها ليست من الغفلة بحيث تسمح بتصوير هذا السيل المتدفق من عقود البنكنوت على انه اذا كانت هذه الأشياء تبدو مألوفة رغم غرابتها في هذا «الجو الأحمر» الا ان الشيء الذي لفت نظري ليس في كازينو الليل فحسب بل في أي كباريه دخلته ، وهو انه كلما قلت قيمة العمل الفني كلما زادت ايراداته والعكس ، أي كلما زادت القيمة الفنية لأي عمل قل نصيبه أو تلاشى من أية مكاسب مادية ، فمجدي الحسيني وحماده سلطان مثلا رغم ان الأول يشنف الآذان وهو يعزف على الأورج والثاني يجعلك تستلقي على قفاك من كثرة الاضحاك الا أن نصيبهما من النقوط لا شيء ..!!

قد تقول بعد هذا: لقد دخلت بنا في عالم اللامعقول فأقول لك: مهلا لقد رايت بعيني راسي أناسا يفتحون حقائبهم الدبلوماسية ويتناولون رزم الأوراق الحمراء وينثرونها فوق راس السلطانة فتتطاير كأسراب الطيور او كرذاذ نافورة التحرير في يوم صيف قائظ ..!!

* * *

أما عن أحمد عدوية فلا تسل ، انه جوهرة سوداء بل ملك النقوط ليس في شارع الهرم فقط ولكن على مستوى كباريهات الجمهورية — الأندلس — رمسيس الهرم — شهرزاد والمقطم قاعة الف ليلة بالهيلتون كازينو الليل المعنى — صالات فندق فلسطين — الاريزونا — حتى انني بعد كل الذي رايته في تلك الكباريهات أستطيع القول وبكل اطمئنان أن كل واحد منها يعتبر بئرا كبيرا من البترول أو قناة سويس صغرى بلا جدال ......!!!



مدينة المتناقضات

الزمان: ٣٠ يوليو سنة ١٩٦٢ .

المكـــان: أشهر شارع بالقـــاهرة .. شارع أشهر كنيسة وأشهر زاوية ..!!

القس يرتل آيات من كتـــاب الرب والجمع الخاشع يرسم علامة الصليب على صدره ، والخطيب يصيح كما الديك الفصيح شارحا ما كان من أمر (موسى وعيسى وخاتم الأنبياء والمرسلين) في الوقت الذي يلف فيه الغموض الشارع من أقصاه الى أقصاه فاذا سألت عنه انسان ابتسم وهو يغمز لك بعينه كأنك ذاهب لارتكاب خطيئة من نوع خاص ..!

هذا الشارع لا مكان فيه لحل وسط فقاطنه أما راهب أو زنديق ..!! أما عالم فاضل أو قواد فاجر ، أما مومس باعـــت الاخرة واشترت الدنيـــا واما ناسكة أو قديسة ترى أن الدنيا بكل ما حوت لا تساوي جناح بعوضة . على انه وان كان هذا مثيرا للدهشة ، الا أن المروع هو استغناء بعض الأهلين عن نظام المأذونية والاستعاضة عنه (بنظام) القوادة ..!!

فالقواد تجده دائما محاطا بالزبائن .. والمأذون يكاد يعزف على العود لجلب الزبائن كحلاقين زمان ..!!

المأذون بالكاد يوفق راسين في الحلال كل شهر والقواد يوفق عشرات الرؤوس في الحرام كل ليلة ، هذه الرؤوس ليست لها هوية معينة، أو جنسية محددة ، فتارة يوفق خواجة بمصرية أو خواجية بمصري أو مسيحة



القلعـــــة « دار الملك الناصر »يعلوها جامع محمد علي

بمسلم أو مسلمة بمسيحي (وكله ماشي وسلم لي عالمترو) ....!!

المهم انه قد دلني أحدهم علي سمسار عجوز أعرج يدعى عم أحمد ، ولما كان عم احمد خبيرا بشارع كلوت بك خبرة رومل بالصحراء فانه قد راح (يبشرني) بشقة رائعة أنعم فيها بالهدوء وراحة البال ، وحسن الجوار وطيب المقام بين العذارى الفاتنات ذوات الحسب والنسب والأصول العريقة: وكيف انني لن اخرج من الشارع يوما الا وفي يدي زوجة جميلة «ونصف دستة» من الملائكة الصغار ..!!

صفق قلبي طربا واعتبرت عم أحمد «ملاكا هبط علي من السماء ..!! حقا ان الملائكة لا يعرجون ولكن هذا كسرت ساقيه عندما سقط على الأرض في عالمنا النحس» ..!!

وكأي شاب ساذج رحت اسأله عن العروس المنتظرة وأوصيه أن ينتقيها لي متدينة جميلة ، ذات اصل وخلق كريم ، خاصة وانني خارج لتوي من دوامة .. قصة اليمة طويت صفحاتها بيدي وصنعت لنهايتها فصلا دراميا موجعا ، وشاء القدر أن أكون فيها الخاسر الوحيد والمتألم الوحيد والمستثير لعطف العدو قبل الصديق ..!!

أقول لهذا السبب رحت أرجو عم أحمد أن يدقق في اختيار العروس ، بل اخذت أردد على مسمعه كلمات الاصل والدين والشرف والفضيلة كما يردد. تلميذ شاطر قطعة محفوظات على مسمع استاذه .. وكما يضيق المخمور بنصح المتدين قال يطمئنني: انه لا حاجة بي لمثل هذا الكلام ، فهو وان كان يعيش في القاهرة ، الا انه أصلا صعيدي تجري في عروقه الدماء الحارة وانه لمن حسن الحظ أن توجد بالمنزل القريب فتاه على حد تعبيره «سأع» بتاعة سجادة ، وانه لو شاء القدر أن تكون زوجة لي فانني سوف أغير فكري تماما عن فتيات القاهرة فالتدين عصمة الفتاة من كل سوء ، والاصل حجاب من كل فتنة وهذه ابنة اصول فوالدها هو الآخر صعيدي وأمها ريفية وهي لذلك ثمرة طيبة لشجرة طيبة ، ولكن ما حدث من تلك «المتدينة» كان كافيا للقضاء على ما بقي لي من ثقة في كل فتاة ، فالذي حدث في شقتها أو

ماخورتها هو انني رأيت فتاة سمراء غليظة الملامح تدخن بشراهة وتدندن بأغان خليعة شائعة خاصة عندما تجلس الى طست الغسيل مشمرة عن أفخاذ بضة مثيرة « وأنها لذلك تغض بصرها حياء وتعض علـــى شفتيهـــا في خجل زائد كلما رأتني أتطلع اليها في دهشة ..!!» .

* * *

هذا ورغم انني قد اكتشفت ثلاث قطع داخلية ملوثة تحت السرير الذي أعد لنومي فقد كان من الممكن أن تسير الأمور سيرا طبيعيا لولا أن تحولت الشقة نفسها بمجرد قدوم صديقـــاتها الى بلاج من بـــلاجـــات الاسكندرية .. عري ورقص .. واخذ أدشاش وضحكات ممطوطة .. حتى اذا حل المساء أخذت تتزين على عجل وتضع مساحيقا ثقيلة على وجهها ثم تسرع الى الخارج ، بيد انه لما كانت الشوارع تموج بالحركة في هذا اليوم نظرا لقدوم رئيس دولة زائر ، فانها ما لبثت أن عادت مذعـــورة وألقت حقيبتها في يأس على اقرب كرسي ، فلقد فاجأها كما أخذت تروي لأمها «قوادتها» مخبرا من هؤلاء الذين يتصدين فتيات الليل وخيرها بين اقتيادها للقسم أو أخذ ما معها من نقود ففضلت الثانية مقابل الافلات من قبضته فما كان من الأم الا أن بسطت يديها الى السماء وأخذت تشكوه الى الله فهو — على حد تعبيرها — يأخذ عرق الولايا اللاتي يأخذن بقـــدر مـــا يعطيـــــــن ...!!

وانه حتما سيأتي اليوم الذي يرزق فيه بابنة تعمل في «الكار» ولا تجد من يرحمها ..!!

غسالة وكومبارس ..!!

وكما فقدت الثقة بالجنس اللطيف وجدتني أفقد الثقة بالسماسرة ومن ثم حملت حقائبي في باكورة اليوم التالي وقررت أن أبحث عن حجرة أو شقة بالمجهود الذاتي .. ولما كانت أزمة المساكن قد بدأت تفرض نفسها فقد وجدتني رهين الشارع اللعين أبحث فيه بلا طائل حتى اهتديت أخيرا

الى شقة صغيرة «تمتلكها» سيدة قصيرة مفرطة السمنة فاستقر بي المقام في حجرة من حجراتها ولدهشتي وجدت الشقة تحتلها ثلاث أسر ، فلفلـــة صاحبة الشقة وهي متزوجة من عامل بوفيه في السكة الحديد وأم كاري شقيقتها وزوجها وأولادهـــا ، وخميس تاجر المخدرات وخطيبته «رومة» والاخوين أحمد وحنفي عاملا الطباعة ، ونونة المومس ، وعلـــي الصعيـــدي ورجلا عجوزا متهدما قيل انه صديق عمر لوالدة فلفلة ..!!!

هذا ورغم التباين العجيب في تلك الشقة الا أن قاطنيها أو المترددين عليها كانوا يبدون جميعا وكأنهم اخوة يستحيل أن تفرق بينهم الأيام ولعل هذا راجعا الى عدم تعارض مصالحهم فزوج أم كاري قد أحترف صناعة القرود والنسانيس ..!

وخميس كان يقضي جل يومه متنقلا في الشوارع يوزع سمومه على العملاء حيث كان لازال حديث العهد بالمهنة ، والرجل العجوز قد احترف بيع الفوارغ من أقفـــاص البرتقـــال والاخوان في المطبعة ، ونونه مع الزبائن ..!!

اما فلفلة فكانت نموذجـــا عجيبا من الناس ، فهي غسالة ومطربة وزوجة لسبعة أزواج على التوالي وصديقة لكل المومسات ومضيفة لكل عابر سبيل وصاحبة نكتة وقلب كبير ..!!

غسالة لأن قدرها قد شاء لها أن تكون زوجة ولا زوجة ..!!

زوجة لأنها فعلا مقترنة ببسيوني على سنة الله ورسوله ، ولا زوجة من حيث أن هذا الزوج كان يعاملها كعبدة أو أمة ، فهو بحكم خلقته شخصا عابسا دائما ، صموتا دائما يخيل لمن يراه انه قد تطوع بحمل هموم الدنيا ونقص أهلها ومع هذا فهو يخرج من السابعة صباحا بعد أن يشتري لها طبق الفول ورغيف الخبز لتأكله أمامه كأنها يخشى أن تتصدق بهذا الزاد القليل على الفقراء ثم ينصرف بعد أن ينقدها ثلاثة قروش للغذاء ويعود من عمله قبيل منتصف الليل ليشتري لها بنفسه عشاء مكونا مـــن رغيف خبز

وطبق سلاطة وبضعة حبات من الطعمية ثم يجلس ينظر اليها صامتا على السرير وهي تزدرد كل هذا على الأرض فاذا ما انتهت اطمأن باله واستراح ضميره ونام حتى الصباح لذا لم يكن غريبا أن تعمل غسالة ببضعة قروش تعينها على أمرها ، ومطربة ترى ان صوتها الأخنف يؤهلها لأن تكون خليفة أم كلثوم ووارثة «عرش» اسمهان ، فهي تغني لجميع المطربين من أول سلامة حجازي وسيد درويش الى أم كلثوم وشادية وعبد الحليم (وكومبارس) يستغلها المخرجون في فض خناقات أفلامهم نظير جنيه واحد في اليوم وزوجة لسبعة ازواج تذكرهم دائما بالفخار عدا بسيوني الذي تكرهه بكل ذرة في كيانها ومع ذلــك فهي كريمة الى حد السفه تجود بكل مليم في «جيبها» لارضــاء اصحــابها من الفقراء والميسورين والحرائر والمومسات على السواء ..!!

اقول ان الجميع قد احبها لطيبة قلبها وانطلاقتها المحببة ودعاباتها التي لم تخرج يوما عن حد اللياقة والأدب حتى هؤلاء الأزواج الذين «طلقتهم» أو طلقوها كنو لها في قرارة انفسهم احتراما عميقا لما جبلت عليه من نفس حرة ابية تفضل الموت جوعا على اكلة لقمة مدنسة ولكم وددت ان ابقى طويلا في صحبتها لولا ما استجد من ظروف صيرتها الى العدم وحملتني تبعاتها فلقد تقدم ذات يوم صعيديا من بلدتنا مع زوجة له يريد اجراء جراحة لها فتطوعت هي بالبقاء الى جوارها اكراما لخاطري ، ولما كانت قد تركت الشقة في حراستي حتى تعود مع المريضة ، ولما كنت بدوري ملولا لا أطيق المكوث بين جدران أربع فانني قد عدت ذات يوم لأجد الشقة أنظف من الصيني بعد غسله ..!! اسقط في يدي وهرعت الى عيادة الطبيب ابلغها النبأ فانقض عليها كالصاعقة رغم انها تعرف اللص جيدا ، ولم يكن اللص سوى خميس تاجر المخدرات وخطيب اختها رومه ..!! ذلك ان خميسا قد احب رومه الى درجة العبادة وركب الصعب من أجلها ، تاجر في المخدرات واختار ان يقضي عقوبة المؤبد فيما لو قبض عليه على أن تبقى بعيدة عنه وكانت فلفلة هي «قاضي الغرام» أو كيوبيد الذي ربط بين القلبين العاشقين ولما كان من

المحال دوام الحال فان الحب ما لبث ان تبخر من قلب رومه عندما قدم حنفي عامل الطباعة من الاسكندرية واقام عند خالته فلفلة فبادلها حبا بحب ولكنها «رومة» مخطوبة لخميس وهو «حنفي» مازال عاملا بسيطـــا لا يستطيع الانفاق حتى على نفسه ....!

اذن لم يكن هناك حل للمعادلة الصعبة سوى أن يتبادل العاشقان الغرام تحت ستار القرابة على أن يتولى خميس الانفـــاق على الجميع ، رومة وفلفلة وحنفي وام كاري وزوجها صانع القرود بل وضيوفهم جميعا وهكذا اصبح لرومة حياتين ، حياة عامة وحياة خاصة او بمعنى آخر .. أصبح لها خطيب وعشيق .. خطيب أو بمعنى ادق خاطب يتولى الانفاق عليها من أول رغيف العيش الى أغلى فستان في شارع الشواربي وعاشقا غارقا في بحر العسل يؤانس ويجالس ويحضن ويقبل دون أن يدفع مليما واحدا ، بل قد بلغت به الجرأة أن يقبلها امام خطيبها نفسه فاذا جن جنونه وراح يحاسبها اقسمت له الف يمين ان القبلة لم تكن على شفتيها بل على خدها وأنه بحكم سنه كصبي صغير أن يضع قبلة على هذا الخد ..!!

ولكن !!

تمر الأيام وتكثر قبلات العاشق المحمومة فيجن جنونه ويبدأ في محاسبتها من جديد فتثور لكرامتهـــا ثم تبدأ معه حوارا هـــادئا خلاصته أن عينا قد اصابتها فهو قد ركبه وسواس بسبب غيرته عليها ، وانها لذلك ستوصي «الشيخة زكية» بأخذ «رائحته» وعمـــل التنجيم الـــلازم لارضاء الجن أو العفريت الذي ركبه ، وبالطبع لم تكن زكية هذه سوى مومس تائبة تحولت الى قوادة ومنجمة ..!! المهم انه قد أفاق بعد شهور على الحقيقة المرة وهي ان خطيبته تخونه سرا وعلانية ، فبيت النية على الانتقام من فلفلة التي اوقعته في تلك الورطة وانه اذا كان قد خسر كل شيء حبه وذكرياته ، نقوده وكرامته فانه لا بأس من أن ينقذ ما يمكن انقاذه فبدأ ينسحب على مراحل مغطيا هذا الانسحاب بالضحكـــات والابتسامات والوعود المعسولة حتى جاءت الفرصة وغادرت فلفلة القاهرة واقامت مع مريضتنا في «بنها» فانقض

على الشقة في «ساعة تخلي» ولم يترك لها فيها الا ما يترك اللئام على مائدة الكرام وفر بما يحمل الى جهة غير معلومة ..!!

ولست في حاجة الى تفصيل ما حدث بعد ذلك من حيث القاء التبعة كاملة على شخصي المهمل فلم أستطيع مواجهتها بعد ذلك وغادرت الشقة غير أسف ان أسفت على شيء سوى ذكرياتي القصيرة الجميلة مع تلك المرأة التي كانت بالنسبة لي كالبلسم الشافي من طعنات الشكوك المسمومة بعدما وقر في قلبي واستقر في ذهني أن كل شقة في هذا الشارع اللعين ليست سوى مأخورة ، وأن كل محل تجاري ليس سوى وكر للدعارة وأن كل سيدة أو فتاة فيه ليست سوى مومس أو قوادة محترفة ولو حملت المصحف وهبطت من السماء بأجنحة بيض ..!!

* * *

شحات باشاوات ..!

هذا واذا كان الشيء بالشيء يذكر أعني انه اذا كانت فلفلة شخصية ذات طابع غريب في سلوكها وحياتها فليس أغرب منها سوى الشيخ علي درويش الذي أقمت في شقته فترة من الزمن والذي كان فيما مضى محاميا شرعيا وزعيما حزبيا وصديقا شخصيا لسعد زغلول والنحاس ومكرم عبيد والنقراشي وجميع الباشاوات والأعيان ورجالات السلطة فيما قبل ثورة ٢٣ يوليو ، فهو اجتماعي الى أقصى الحدود يصادق السوقة والعوام بنفس البساطة التي يصادق بها الباشاوات والزعماء لذا لم يكن غريبا أعني انه لم يكن يجد غضاضة في أن يتناول غداءه مع النحاس في قصره في جاردن سيتي ليخرج بعدها ويتناول عشاءه مع بائع متجول في روض الفرج فهو شره الى درجة شاذة ومنافق عرف بالتلون الحزبي والمذهبي ، ورغم هذا فهو ثوري شديد الثورية على الاحتلال لا يكاد يرى مظاهرة تهتف بسقوط السير لي ستاك أو اللورد كرومر حتى يعتلي أكتاف المتظاهرين متزعما اياهم واذا لم يجد مكانا على كتف أحد حلشاش عمامته وصنع منه مقلاعا وراح يقذف عساكر الانجليز بالطوب والذي يبدو أن الباشاوات والزعماء كانوا يحبونه

على علاته أو كانوا يتخذون منه مادة للتسلية والمزاح فعندما طلب من سعد زغلول أن يتوسط له مع ادارة الأزهر في الحصول على شهادة «العالمية» لم يعارض سعدا وانما رفع سماعة التليفون وطلب شيخ الأزهر قائلا له:

ـ فيه حمار جاي لكم أدوه العالمية ..!

وكان من عادته أن يصف العوام والسوقة بأنهم قوادين ..!!

ولكنه ينطق الدال ، ذال بحكم انه ألدغ فتراه يقول:

ـ لا تأخذ على فلان لأنه قواد أو هـذه المرأة مومس وهذا الرجـل يقوذ عليها ..!!

ومن دفاعه المجيد «أمام المحاكم انه وقف يطالب يوما بنفقة لزوجة بائع متجول فاذا به يقول للقاضي:

ـ ان موكلتي تريد نفقة من هذا القواذ ...!

فثار الزوج لكرامته واخذ يهلل في ساحة المحكمة سابا الزوجة بأقذع الألفاظ:

«دي بنت كلب واطية ، هربت من البيت ، وسابت الوله يرضعوه الجيران ..! اديني عقلك انت يا بيه .. أخذه معاي على العربية ، والا اعمل حرمة واقعد عشانه في البيت ..» .

ولكن الشيخ علي بدلا من أن يبطل دفاعه وقف صامتا لا يتكلم حتى اذا فرغ من صياحه ، قال للقاضي بكل بساطة:

ـ والله العظيم ده كداب وابن كلب أوعه تصدقه ..!!

ورغـم ذلك فقد استطاع أن يجمع بضعة ألوف من المحامـاة مضافا اليها أخرى من ايراد أرضه في الصعيد بيد انه لما أفلس وعرفه الناس على حقيقته استطاع كأي نصاب أن يمتهن حرفة أخرى درت عليه سمنا وعسلا

واوزا محمرا وصحافا من الفتة وبلحا كان يوزعه من كثرته على الجيران ، ولم تكن الحرفة الاخرى سوى دور الوسيط في الوظائف الحكومية ...!!!

* * *

فكل الشباب يريد ان يستوظف ، والوظيفة تبدو أمنية مستحيلة ولكنها عند الشيخ علي حقيقة واقعة ..! فهو بحكم صلاته بالباشوات والاحزاب فضلا عما اكتسبه من علاقات خلال عمله بالمحاماة يمكنه أن يعين اي انسان بجرة قلم فلقد علمته خبرته في التعامل مع هؤلاء الكبار ان الواحد منهم كالغانية يغره الثناء فأخذ يكيل لهم المدح بلا حساب ، بل انه كان على أتم استعداد أن يقبل يد الساعي وحذاء المدير كي يعين عاملا بسيطا في السكة الحديد لذا تجد ان ٧٠٪ من العاملين بالسكة الحديد والتليفونات ونسبة لا بأس بها من العاملين في الهيئات الأخرى من صنيعه ، فهو المفتاح لاي باب حكومي مغلق والداهية لكل مدير او مسئول مغرور ..!!

واذا كان الشيخ علي مفتاحا لهؤلاء فان مفتاحه هو نفسه لم يكن يتجاوز أوزة محمرة وطبقا من الثريد وهذين افتقداه كل ما جمع من ثروة .. فاذا أردت مصادقته عليك بذبح أوزة وشيها أو تحميرها وحملها اليه على طبق من الثريد أو الأرز المتبل بالبهارات والسمن البلدي لكي تصير صديقا صدوقا له طيلة حياتك ، ولما كانت الأوزة المذكورة نقطة الضعف فيه فقد وجد من المحتالين من يذبح له الأوز ويغرفه في الفتة ويستولي على ثروته وذلك باقناعه بالاشتراك في مشاريع وهمية كشراء بضعة لواري وتشغيلها في الخط الطوالي من القاهرة الى الاسكندرية أو تأسيس منحل أو مزرعة لتسمين الدواجن في صحراء الهرم او مصنع للألبان او كافيتريا في ضاحية مصر الجديدة أو المعادي فاذا نالوا بغيتهم راحوا يتملصون منه ومن ولائمه بطريقة «دبلوماسية» حتى ان أحدهم وجد نفسه مرغما يوما على استضافته فلم يجد خيرا من القصب يحضره له كي يمصه قبل أكل الأوز ، حتى اذا امتلأت معدته بعصارته انسدت نفسه قبل أن يغادر جناح الأوزة ولا ضير بعد

ذلك من أن ينعته باقذع الالفـــاظ ابتداء من «القواذ» الى صاحب ماخورة دولية .

* * *

لكل هذا فقد المسكين ثروته وعاش وحيدا بلا زوج أو ولد فاعتلت صحته ورثت ثيابه وتنكر له أهله وأصحابه ووهنت خطاه وأدركه المشيب ، ومن العجيب أن يحدث خصام بين الشيخ علي والترام رغم انه قد زرع القاهرة والوجهين جيئة وذهابا فكان وهو الربعة السمين يخاف من العربات بوجه عام ، والترام بوجه خاص فاذا رآه تملكه الذعر وأخذ يتقدم ويتقهقر ويدور حول نفسه حتى يفر من أمامه بأعجوبة ، ولكن يبدو أن القدر قد رتب لقاءا فاصلا بينهما كان يؤجله الى حين ، ففي آخر مرة خرج مع صبي يقوده من أبناء الجيران فاذا بالترام قادم عن كثب فأخذ يكر ويفر أمامه كالعادة وقد تشنجت يده في ذراع الصبي وهذا يحاول ابعاده بجهده الكليل حتى أصبح منه قاب قوسين أو أدنى ففر الطفل وتركه لمصيره المحتوم ...!!

وهكذا انتهت حياة الرجـــل الذي «صنع المستقبل» لعشرات الآلاف ولكنه لم يستطع ان يصنع المستقبل لنفسه ، بيد أن الشيء المؤسف حقيقة هو أنك اذا سألت واحد من هؤلاء عنه تنكر له وسألك بدوره:

ـــ من هو الشيخ علي ..!!؟

فاذا ذكرته به واخذت تعدد مآثره هز كتفيه وقال بلا مبالاة:

ـــ الله يرحمه ..!!

ورغم هذا الجحود وتلك القسوة الا أن هذا لا يغير من الامر شيئا لانه اذا كانت العملة لها وجهين فان القاهرة عملة نادرة لها عشرات الوجوه ، ومن حسن الحظ انها عملة ذهبية لا تصدأ مع الأيام ....!!!



مدينة الأدب والصحافة

هل رأيت «بيت جحا» في حديقة الحيوان ...!؟

اصفه لك :

بيت جحا يا سيدي نموذجا عجيبا لما يمكن أن يسكنه انسان ، فبرغم أن مهندسو العمارة والديكور والفنانين التشكيليين قد تعبوا كثيرا في اخراجه على تلك الصورة ، الا ان منظره يشبه كوخ كبير من الطين والأحجار ، فهو بالأطلال أشبه ..!! انه كحجر الثعلب له عدة مخارج ومنافذ كل منها يؤدي الى الآخر فاذا دخلته وسرت في أحدى طرقاته الأرضية وجدت نفسك على السطح فتؤخذ وتروح تكتشف معـــالمه الغريبة فاذا بك في احدى شرفاته البحرية في الدور الأول وهـــذه تقودك عبر ممر لولبي الى الشرفة القبلية المطلة على بحيرة البجع .. وهكذا تظل تخرج من متاهة وتدخل في أخرى حتى ينال منك التعب وتحس من الذهول أنك تسير على راسك بل الأعجب أنك تمر بكل الأقبية والدروب والدهاليز ولكن عليك معرفة المدخل الذي دلفت منه أول مرة لكانما سرقته الشياطين او لكأن ماردا حملك على كتفه وحط بك في مملكة الجان ...!!

أقول هذا لأن ثمة تشابه بين بيت جحا ومدينة الصحافة والأدب في مصر فهي مدينة عمرها مائة وخمسون عاما وعمرها ايضا ٦ آلاف عام ...!!! عمرها مائة وخمسون عاما لأنها نشأت على يد رفاعة الطهطاوي الذي أخذ بعد عودته من فرنسا يعد صحفا على ما شاهده هناك واضعا حجر الزاوية لأول صحافة عرفت في تاريخ مصر ، لكن اذا أمعنا النظر قليلا وجدنا ان حركة

المد الصحفي قد انتشرت منذ ستة آلاف عام بين ربوع الوادي الى مختلف ارجاء العالم لتظل «كالحمل المستكين» في أحشاء التاريخ حتى اذا رأت النور في العصور الحديثة نسبت لا الى «أبيها الشرعي» في مصر ولكن الى «زيد» من بلاد الافرنج الذي سرق فكرة الصحافة تماما كما يسرق المومياتٍ ويعرضها في متحف اللوفر في باريس ......!!

على انه اذا كانت الصحافة هي الكلمة المقروءة التي تترجم سياسة الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول في فترة زمنية معينة فان هذا التعريف ينطبق تمام الانطباق على صحف الدولة القديمة ، في جميع عصور الاسرات الفرعونية ، فالنقوش والرسومات التي وجدت على جدران المعابد والمقابر والمسلات تدل بما لا يدع مجالا للشك على أن الفراعنة قد **عرفوا الصحافة المتطورة** التي تعتمد على المقال والخبر والكاريكاتير وتحليل المواقف السياسية، وتنبىء بالرياح والفيضان ورصد الافلاك وسر المادة وانعكاس الضوء والحرارة وعلاقة الانسان بما يحيط بــه من كائنات والاستفادة من الملاحظة والتجربة وتحقيق نتائج عملية عليها ، مثل استخدام لبن الأم في علاج التهابات العين والجلد المحروق في علاج الجروح والتوصل الى علاج الامساك بالحقنة الشرجية بل من العجيب أن تفرد هذه (الصحف) أبوابا ثابتة لمختلف المجالات الفنية كالموسيقى والباليه والرقص الايقاعي ، وأبوابا مثلها للأدب بشتى فروعه من قصص وروايات وترانيم وسبحات(١) وأساطير ونوادر وفكاهات ، بل الأعجب أن يتوصل الفراعنة الى (الأسلوب البرقي) الذي ينبذ الاسهاب دون ما اخلال باللب والجوهر ، فأسلوب «الرصد» قد تميز بالجذالة والبساطة مع اعطاء الجملة حقها من العمق والتأصيل لكأن المعبد صحيفة جامعة لكل لون من الوان الفكر في صفحات رائعة التنظيم جذابة ثابتة الألوان شائقة العرض .. ولكن اذا كان لكل مكان طابعه وزمان أدواته فليس عجيبا أن يستخدم الفراعنة الشاكوش والازميل بدلا من الريشة والقلم والجدر الحجرية بدلا من الصحائف الورقية ، فثمة فكر متقدم سابق لعصره قد سجل عليها في وقت كانت فيه الحضارات ضربا من العبث والتقدم اشلاء فكرية والعقيدة الدينية فكرة سقيمة عن اله خلق السموات والأرض والناس اجمعين .....!

(١) راجع سبحات اخناتون التي يبتهل فيها الى الاه واحد .

ان أية صحيفة عالمية في العصر الحديث لا تطمح في فكر أكثر من فكر حواه معبد ، وخلود اكثر من خلوده وأمثولات وحكم ونوادر أعمق من تلك التي حواها قبر ظليم ، بل أن الأضواء التي تسطع على سطور الصحف الحديثة اذا ما قيست بشموس الفكر التي سلطت على مسطور المعابد والمقابر والبرديات لا تعدو أن تكون شهبا سريعة الفناء وأمواجا عالية تسير سراعا نحو الشاطيء لتصير الى العدم على صخور الأيام ...!

* * *

لقد كان حري بنا ونحن نسير على جسر الخلود أن نواصل المسيرة لنصل بعد ستة آلآف عام الى شيء يجل عن الوصف في عالم الكلمة ولكنها عبرة الزمان التي أنامت أقواما وأيقظت أقوام ، فبعد أن تربعت مصر على عرش الكلمة ووصلت الى القمة ، لم يكن بد من الانحدار فالقمة أقرب الطرق المؤدية الى الهاوية ..!

اذن فالعيب ليس عيب المجد الذي زال والعروش التي اندكت والآداب التي اندثرت ولكنه عيب الاهمال الذي جعلنا نغفو آلاف السنين لتستيقظ شعوب فتشيد حضارات وتبني مجدا ...

ونحن ...!!!؟

ما زلنا في غفوتنا نحلم بالماضي ولا نتطلع الى المستقبل نبكي على الأطلال ولا نحاول البناء ، ننام تحت مظلة التاريخ غير عابئين بشمس الحقيقة التي تكوي جنوبنا وظهورنا وأعناقنا ...!!!

لقد كان من قبيل الصدفة أن يكون للمصريين ادب في العصر الحديث ..!!

ولولا تلك النهضة التي أسسها «محمد علي» لما قامت للأدب أو الصحافة قائمة في هذا العصر اللهم أن يكون ذلك من قبيل صدفة أخرى بعثت بها الأقدار الينا ، ذلك انه عندما أراد أن يؤسس نهضة حضارية ، كان عليه أن ينشيء المدارس المختلفة ويستقدم الأساتذة من الخارج ويوفد البعثات

الطلابية الى أوروبا ليبرز دور رفاعة الطهطاوي كواحـــد من رواد النهضة الأدبية الصحفية خـــلال القرن الـ ١٨ فلــقد تمنى أن يرى في بلده صحـــافة «كالجرنو» التيطالعها الفرنسيونصباح مساء حتى اذا عاد عملعلى ارساء نهضة صحافية قوامهـــا مجموعة من الصحف الحكومية كالوقائع الرسمية وروضة المدارس التي اهتمت بالاداب اسوة بالمقالوالخبر فكانتتنشر فصولا من كتب المشاهير أمثال رفاعة الطهطاوي وعبدالله فكري وعلي مبارك الى جانب الصحف الأهلية كنزهة الافكار وأبو نظارة ووادي النيل الأمر الذي شجع فريقا من الشوام على القـــدوم الى مصر وتأسيس صحفا كالتجارة والاهرام والكوكبالشرقي ، بل من الانصاف أن نذكر حركة للترجمة اضطلع بها تلاميذ رفاعة الطهطاوي حتى زاد عدد ما عربوه على الفي كتاب .. هذا ولئن كان للادب والشعر في فرنسا أو غيرها من البلدانالاوروبية دور مختلف عن مثيله في مصر الا ان الكلمة قد اصطبغت بلون آخر ، لون يختلف عن ذلك الزواق أو البريق الذي يخطف الأبصار فيعميها عن حقائق كثيرة ... فالكلمة في فرنسا تمجد وصاحبها يخلد لا لشيء الا انها صنعت لها تاريخا ومستقبلا فمنتسكيو وجان جاك روسو وفولتير كل هؤلاء كان لهم دور لا يقل أهمية عن غزوات نابليون وكفاح جان دارك ...

فالأدب ليس ترفا أو وسيلة لتجميل قصور القادرين والصحافة ليست جريا وراء التافه أو الغث من الأخبار وانما الأدب تصوير لواقع الحياة من أنسب الزوايا حتى يمكن ابراز العيوب والمزايا والصحـــافة «كلمة» ولكنها كمبضع الجراح تصل عضوا سليما بمثله وتستأصل الفاسد من جسد المجتمع حتى يبرأ من العلة ...

ولكن ...!! أية علة تلك التي يراد القضاء عليها ...!!؟

لقد كان المجتمع المصري يئن من علل كثيرة .. علل الجهل والفقر والمرض والظلم المركب .. ظلم المستعمر والحاكم للشعب ، وظلم الغني للفقير ، وظلم الرجل للمرأة على مستوى الفقر والغنى على السواء ، فالخديوي توفيق يتنكر لمطالب الحركة الوطنية ويرى انه اذا كان للشعب مطالب في الحرية

والاستقلال والدستور فان هذا الشعب ليس سوى مجموعة من الفلاحين او انهم — عبيد احسانه — وليس للعبد حقوق على السيد الا أن يجود عليه بلقيمات من فضلات مائدته العامرة ..!!

والانجليز يغذون تلك الروح ، بل ويوعزون له بأن تلك الحركة مصدر خطر على عرشه وعرش أجداده ..!! أما الاقطاع فانه آخذ في تدعيم وجوده بامتلاك المزيد من الأراضي دائب السعي من أجل الحفاظ على رتبه والقابه لكأن العدالة في هذا المجتمع لا يستقيم لها ميزان دون أن ترجح فيه كفة على أخرى أو قل كأنما الفقر والبؤس في مصر يورث،والغنى والجاه له صلة نسب بتلك القلة من المحظوظين الرافلين في الدمقس والحرير ، غير انه لما كان للمستعمر وجه سافر لما تبدى من ظلمه وجبروته وللحاكم من فظاظة واستعلاء وللاقطاع من شرهة وأنانية وكلهم أعداء لهذا الشعب فان الامر يبدو مختلفا اذا اتخذ هذا الشعب من نفسه عدوا لنفسه ..! فالمرأة وهي الأم والاخت والزوجة قد سجنها الرجل بارادته بين جدران أربع وقيدها بسلاسل غير منظورة فهي التي ظلت دائما رهينة المحبسين بلا علة قعيدة في دارها بلا عجز أو كساح فخروجها الى الحياة العامة بدعة ومشاركتها له في العمل ضلالة وابدائهـا لرأيها أو للرأي فيما يعين لها من أمور سفورا فكريا يجاوز حد الحياء .. لكل هذا أو من أجل هذا التزم الرجل دائما بسياسة «الباب الذي يأتي منه الريح ..!» في الوقت الذي خرجت فيه المرأة الاوروبية الى ميدان العلم والعمل منذ زمن فهي المهندسة والطبيبة والعالمة والمفكرة والأديبة المبدعة ولم يحل قيامها بدورها أن تتحمل مسؤوليتها كأم .. ولكنها أم عالمة أو متعلمة مستنيرة أو متحضرة لا أم مجهولة أكول تتخفى نهارها وتظهر بالليل كالخفاش ..!!

اننا قبل أن نستطرد في بيان الأسباب التي حدت بالمستشرقين وأعداء الدين الى النيل من الاسلام كعقيدة ونظام ينبغي القاء الضوء على الاتجاهات الفكرية التي سادت مصر في تلك الفترة فثمة فكر ثوري يرى في النظام القائم كل بلية وأنه لا سبيل الى اصلاح النظام الاقتصادي والاجتماعي الا بتغيير

النظام السياسي بالقوة ، وفكر آخر (١) يرى «أن السبيل المترقي أفضل من الطفرة» . فالنظام السياسي يمكن تغييره شريطة أن يسبقه اصلاحا ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا وهذا بعينه الفرق بين جموح الغوغـــاء وما عداه من ثورات العالم المتمدين ...

اننا هنا لسنا بصدد تحليل الرايين لبيان ما لهما من مسالب ومحاسن فالثورة العرابية قد قامت رغم كل شيء لتثبت عكس ما ارتآه دعاتها ولكن الذي يعنينا هو النشاط ونية الاصلاح بعد الجمود والركون الى الظلم ، الأهم من هذا تلك اليقظة الفكرية التي حمل مسؤوليتها زمرة من الصحافيين والكتاب ورجالات الفكر والمصلحين في شتى مناحي الحياة ، فصحافي جـــليل كعبد الرحمن الكواكبي يسلك في الكتابة منهجا علميا عندمـــا يكتب عن «طبـــائع الاستبداد» فيبين كنهه وطبيعته واثاره على الدين والأخلاق وكيف أن الحاكم المستبد يسوق الرعية سوق الأغنام ومن ثم فانهم لا يملكون «الاختيار» مما يودي بهم في مهاوي الضلال ليصل الى نتيجة منطقية وهي أن العبرة ليست بتغيير النظام .. فتغيير النظام سلوكا منهجيا وتغيير الأشخاص سلوكا انتقاميا تكمن خطورته في امكان استبدال حاكم ظالم بآخر ...!

وكاتبا ذائع الصيت كمحمد المويلحي يسخر قلمه «للاصلاح الوقائي» فيصور في روايته «حديث عيسى بن هشام» شخوص المجتمع المصري الذي اخذ يفتح نوافذه على الثقافة الغربية وفكرها الحديث فيبين ان هذه التيارات الحضارية تحمل معها «فيروسا» ضارا ،فالباشا بفكره العتيق والقابه الموروثة ينبذ فكرة المساواة ويرى انه اذا كان للأفراد حقوق وعليهم واجبات في مجتمعهم فان تلك الحقوق تتمثل في طـــاعة الآخرين له وامتلاك الأراضي وحيازة النياشين «تلك هي حقوقه كمواطن» لا أن تكون تلك الحقوق قنطرة يعبر عليها «القطيع البائس» من أفراد المجتمع الى شيء يقال له ديموقراطية أو حرية أو تكافلا اجتماعيا ..! وليس الخطب في ذلك، فهذه الافكار التي تحول كالوطاويط في عقل الباشا يمكن جلائها بحكم سنن التطور وانما الخطب في

(١) من الرأي الاول جمال الدين الافغاني وعبد الرحمن الكواكبي وأديب اسحق ومصطفى كامل والثاني الامام محمد عبده وعلي مبارك ولطفي السيد .

ذلك المفهوم الخاطيء لمعنى الحضارة الذي يفسره «العمدة» على هواه فيرحل الى المدينة حيث الخمر والغانيات ودور اللهو والموائد الخضراء وكأنه بالانغماس في عالم اللذة قد شارك في صنع التقدم ، أو نال نصيبا من المدينة الغربية على حين أن تلك المدينة قد قامت على العلم والاختراع والرغبة الجادة في الكشف عن الحقائق الغامضة من أجل الوصول الى حياة افضل فهو «العمدة» يأخذ بالقشور دون اللب والجوهر دون ما علم بماهية الحضارة الوافدة او المستوردة وعلى غراره يسير الكثيرون في المجتمع فهم بحق كما وصفهم اللورد كرومر في مذكراته «نسخة رديئة من الأصل الغربي» .

ان ما تعبر عنه تلك الرواية يعبر تماما عما نادى به الشيخ محمد عبده من وجوب الأخذ بأسباب الحضارة الغربية مع الحفاظ على أصول الدين الحنيف الذي يدعو الى التمسك بالفضيلة والأخلاق والاخلاص في كل شيء ، الاخلاص في الطاعة لله سبحانه وتعالى والاخلاص في العمل والاخلاص في الجهاد والعلم والصداقة والجوار وتنفيذ العهود والمواثيق .

اننا كشرقيين لنا أعراف وتقاليد وكعرب لنا مثل عليا معروفة وكمسلمين لنا دين نفاخر به الاولين والاخرين وكمصريين لنا تاريخ وامجاد ورغم ذلك فقد وجد من المستشرقين والكتّاب من يهاجم مصر قلب العروبة النابض ومرتع الاسلام الخصيب قبيل الثورة العرابية وبعدها ، بل ومن مكمن الفضيلة الذي نباهي والمثل التي نفاخر ومجد التاريخ الضارب في العراقة الذي نزهو لكأنهم بهذا الهجوم ينفثون غضبهم في تلك الكلمات المسمومة التي لا هم لها سوى «أصابة الدين في مقتل» وصلب فضائل الاسلام ومثله العليا بلا وازع من ضمير ... !!

لقد بداوا غداة الثورة العرابية يحاربون الاسلام زاعمين انه دين التواكل والايمان بالغيبيات الذي لا يحض على علم أو عمل فضلا عما يباهي به العرب والمسلمين من علماء كابن سينا وابن رشد وابن طفيل لا يعدو أن يكون زعم باطل فهؤلاء قد تعربوا بالموطن واكتسبوا الجنسية بالميلاد وأن نزح ابائهم من بلاد شتى ومواطن مختلفة، ان ثمة علم في بيئة الاسلام لا يجدي وأبحاث واستقصاءات لا تثمر فكل من اشتغل بدراسة الفلسفة قد اضطهد أو أحرقت

كتبه وكل من سعى الى العلم سدت في وجهه السبل وما تلك العلوم التي ازدهرت لا يرجع فضل الازدهار فيها الى الاسلام أو المسلمين لكلدانية هؤلاء أو نسطوريتهم التي ترجع الى أصل نصراني ...

* * *

ان رأيا يدلي به «رينان» كهذا في محاضرة للسربون كان كفيلا باحاطة ديننا الاسلامي ونورانيته بضباب كثيف لولا أن تصدى له جمال الدين الأفغاني مبطلا حججه مفندا مزاعمه بادئا بالرد عليه بتوجيه السؤال تلو السؤال .

كأن :

أمصدر الشر عن الديانية الاسلامية نفسها أم كان منشؤه الصورة التي انتشرت بها الديانة الاسلامية في العالم ..؟ أم ان أخلاق الشعوب التي اعتنقت الاسلام وعاداتها وملكاتها هي جميعا مصدر ذلك ..؟

ثم ...

الم تحارب الكنيسة الكاثوليكية العلم والفلسفة ولا زالت ، ففيم التهجم على المسلمين اذا وقع لهم من الفعل نظيره !؟ لقد تمكن العرب من التكيف بسرعة من علوم الفرس واليونان فتقدمت بينهم تقدما مدهشا في حين كان بوسع شعوب أخرى ذلك كالشعب الانجليزي والالماني لقربهما من موطني الحضارتين ...

أما ما يقال عن الفارابي وابن طفيل وابن سينا وغيرهم فان هؤلاء لا يقلون عربية عن الكندي ، اذ لو صح ما زعموه لما اعتبر نابليون بونابرت فرنسيا ولبطل انتساب مجموعة العلماء الذين اتخذوا فرنسا وانجلترا والمانيا وطنا لهم الى تلك الدول ...

هذا ولقد حدث أن زار مصر فرنسيا قيل له الدوق داركور فأخذ ينظر الى الاوضاع فيها بمنظار أسود حتى اذا عاد الى وطنه سجل كل ما شاهده

في كتاب أسماه : « مصر والمصريين » .

فاذا به ريحا عاتيا تحاول تدمير كل شيء ..!!

فلا روح قومية في هذا البلد ، ولا جيش ولا طبقات ولا امرأة ذكية ولا أمن ولا أمان ولا علم ولا عمل ، وانما المصريين شرذمة من الفلاحين ، الفقر سنتهم والجهل ديدنهم والكرباج شريعتهم ، والخدر والأوهام عقيدتهم لكأنما قد تحولت مصر الى كوم من تراب يحتاج الى قدرة الهية ومعجزة ربانية كي يبعث من جديد ، فيرد عليه قاسم أمين :

«ان في مصر جيش ولكنه ليس ككل الجيوش ، فهو المعلمة البارزة والأكاديمية العليا لانه جيش التاريخ الأول» .

وسلكه وجنده ونظامه هو الغاية لكل من انس في نفسه الثقة والقدرة على تكوين كتيبة أو فرقة او جيش ...

لقد امست مصر وأصبحت شريطا أخضر ضيقا لكن جيشها لم يغادر طموحه ، ذلك انه قد وصل بفتوحاته وانتصاراته الى اليونان والشام والحبشة وكورش وآسيا الصغرى .

لقد هزم عرابيا في موقعة «التل الكبير» تلك حقيقة ناصعة ولكن ليعلم الدوق ان للخيانة يدا في تلك الهزيمة وان الذي طمأن عرابيا بأن قناة السويس طريقا دوليا للملاحة ، وانه لن يسمح للانجليز بالمرور فيها لم يكن غير ديليسبس حتى اذا لاحت بشائر النصر للعرابيين خان العهد وسمح للأسطول الانجليزي بعبور القناة فانقلب نصر المصريين الى هزيمة ..!!

اما الطبقية التي عانى منها الفلاح في عهود المماليك والأتراك فانها لا تساوي شيئا اذا قيست بنظيرتها في أوروبا خلال القرون الوسطى حيث عومل الفلاح هناك معاملة تستعصى على الوصف ، فالاقطاعي كان يمتلك الارض وما عليها وان نبالته تلك كانت تخول له الحق في مصير فلاحه فـلا يغادر الأرض الا باذنه ولا يتزوج أو ينجب او يبت في أمر من أموره الخاصة

أو العامة الا بارادته وانه ان خالف ذلك كان له حق نفيه أو اعدامه ......!!

ان الدوق عندما جاء الى مصر لم ينظر الى مشاكل المجتمع نظرة موضوعية فلجأ لغرض في نفسه الى أسلوب التهويل فجاء حكمه عليه باترا متسرعا ...

ويستمر قاسم أمين «ولكن في عنف أشد» :

ان المرأة محجبة ، ولكنه ليس ذلك الحجاب الكامل الذي فهمه الدوق .. فهي تخرج للتزاور وتسعى الى الأسواق وقضاء الحاجات وتربي أبنائها على الفضيلة ، وان حجابا كهذا لخير ألف مرة من سفور الأوروبية التي يهتك سترها في المراقص وتعرض فضيلتها في المصايف والمنتديات فتلك معادلة العار التي يفضل الموت عليها رجل متخلف ...

لقد دلت الاحصائيات على ان ٢٥٪ من الأبناء غير شرعيين في فرنسا وما ذلك الا لسفور المرأة ، وأخيرا فان الدين الاسلامي هو دين العدالة المطلقة الذي يدعو الى العلم والعمل فعلي بن أبي طالب يقف في خصومة مع آخر امام القاضي الذي عينه بنفسه ..! وعدالة عمر بن الخطاب ستظل مضرب الامثال الى آخر الزمان ، وان الله سبحانه قد دعى الى اعمال الفكر والنظر والتدبر في خلق السموات والأرض فكأن العقل مناط العلم وشعلة المعرفة والسراج المنير في تيه الحياة وظلامها وانه متى ثبت الدليل والبرهان بطل الزور والبهتان ، أما اهتمام الدين بالعمل فأمثلته كثيرة خلاصتها ما جاء في الحديث الشريف من انه «اذا قامت الساعة وفي يد أحد منكم غرسة فليغرسها» وما وجاء في محكم التنزيل«وقل اعملوا فسيرى اللهعملكم ورسوله والمؤمنين» وبعد : فان تلك السطور المضيئة من حياة الفكر في فترة ما قبل الثورة العرابية وبعدها ستظل سجلا حافلا لما كانت عليه حال الأدب والصحافة في مصر .. أحداث وطنية ومعارك فكرية .... مناظرات ومساجلات ... اقلام مغرضة دنيئة وأخرى مخلصة شريفة في سبيل الله والوطن وقضية الصحافة التي لا ينضب لها معين ..!

لقد تمثل عطاء الفكر في رد الهجوم الظالم المتعاقب على الدين والأرض

والعرض وبعث الروح الوطنية التي خلقتها الصحافة الوليدة آنذاك فتفجرت احداث وتعاقبت زعامات وتحقق الكثير مما دعى اليه الصحافيين والكتّاب منذ ذلــك الوقت حتى الآن ، اذن فنحن نعيش المــاضي ، بآماله وأحلامه وطموحاته وهذا يبدو طبيعيا لأن الحياة دائما الى تطور ولكن الذي لا يبدو طبيعيا ذلك الخبط الفكري وتلك البلبلة الصحفية التي نعيشها الآن .. لقد قيل بحق ان الجديد عندما يخرج من رحم القديم فانه يحمل صفات القديم ، وانه لكي تصح تسميته بالجديد فانه لا بد أن يحمل اضافة بمعنى أن الخط البياني اذا سار في مستوى هابط فانه يدل على خلل ما في اللحظة الحضارية التي يحياها ، وعلى هذا فاننا اذا نظرنا الى مستوى الأدب والصحافة بعد جيل الرواد وجدنا انه آخذ في الانحدار حتى اذا قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ اتخذ المفكرون من سلبياتها ذريعة لهم في هذا الفشل أو الاخفاق ، فالصالونات الادبية قد أغلقت وصاحبة الجلالة «وضعت في الزنزانة والايدي قد غلــت والأفواه قد كممت والآراء قد شلت وأصبح على الأدباء والصحافيون حملة الاقلام والمشاعل أن يتحولوا الى حملة قرابين ومباخر والا غضب عليهم «أمون الثورة» فسجنهم أو شردهم أو صلبهم الى جذوع النخل وقطع ارجلهم من خلاف أو في القليل نقلهم الى مؤسسة الدواجن ليعدوا هناك البيض والكتاكيت بدلا من أن يعددوا أخطاءه .. ورغم ذلك فان للحديث بقية ، وبقيته تكمن في ذلك المفهوم الخاطيء لكلمة مركز قوى ، فبائع «النوجا» في الترام اذا استطاع ان يسد السبل على زملائه ويجعل منه سوقا رائجة لبضاعته فانه يتحول الى مركز قوى ، وبائع الصحف اذا احتل ميدانا وأعمل مديته في صغار الباعة متوعدا بالشر كل من يجتريء على الاقتراب منه فانه يعد مركز قوى بل المتسول على باب «السيدة» اذا قضى على غرمائه وفرض جعلا على ذوي العاهات واستولى لنفسه على أطباق الفول وصحاف الفتة فانه يتحول آليا الى مركز قوى .. وهكذا نجد أن تلك الكلمة لا تقتصر على شخص أو طائفة بعينها بل يمتد اثرها الى كل من سولت له نفسه التحكم في الرقاب أو للحيلولة دون ممارسة أشخاص لحقوقهم المشروعة ، بل الوسيلة تختلف كما راينا من مركز الى آخر وقد يعجب القاريء اذا علم ان بعضا من هؤلاء الشحاذين قد ابتدع من الوسائل ما عجزت عنه مراكز القوى في السجن الحربي فغــاية الاخيرين ، اطلاق الكلاب المتوحشة لتنهش لحوم البشر أو الضرب بالكرابيج

المنقوعة في الملح أو السم ، أو توصيل التيارات الكهربائية الى رؤوس الأبرياء والكي بالحديد المحمى في النار ولكن مركز القوى من هؤلاء الشحاذين قد تحجر قلبه وتجرد من كل نوازع الانسانية، فهو اذ يمتلكقبوا أو خرابة مجهولة هو «السيد» أو «الملك» فيها بلا منازع . . . . . .!!

في تلك الخرابة تتحول طاقيته الى تاج وعكازه الى صولجان وأسماله الى طيلسان مما يخول له الحق في اجراء تجارب فريدة على الجسم البشري من بتر للأذرع والسيقان أو اقتلاع للاعين وجدع للانوف ومسخ أو تشويه بحيث يخرج الفرد بعدها صالحا تماما لاستدرار الرحمة حيث انه كلما زادت اهمية الجزء المدمر أو المبتور من جسمه كلما زادت فرصته في الكسب بل انه حتى في السجن الحربي كان الفرد يحاسب على جريمة مقترفة أو تهمة ملفقة وفي «دولة الشحاذين» كان الفرد وما زال يحاسب على «تهمة البراءة» فالمجرمون هم القضاة والأبرياء هم المذنبون ، فلا تهمة توجه الى الانسان من أي نوع وانما «البراءة» هي التي يجب أن تقطع من اجلها أوصاله أو يحكم عليه بالعمى ما عاش ، اننا لو تأملنا مراكز القوى لوجدنا انها منتشرة في كل قطاعات الحياة في عالم التسول والبغاء ، في السياسة وتجارة المخدرات في الفلاحة والتجارة ، في الدواوين والادارات الحكومية بل في الصحافة والأدب اللذين من المفروض أن يكون القلم فيها حسام الحق وفيصل التفرقة بين البربرية والحضارة الانسانية . . . . . .!!

ان الصحافة هي العالم الوحيد المضيء الذي تحوم فيه الخفافيش ، أو قل انها «الغابة» التي حوت الأليف والمفترس ، الناعق والمغرد ، المحلق والزاحف والقارض . . !!

انني أعرف ما الذي سيجره علي هذا الكلام فلي مع الصحافيين والكتّاب سابق تجربة ، أذكر عندما أصدرت كتابي الساخر «تحكم ابن خرافة في الأدب والصحافة» انني انتقدت أوضاعا لم تعجبني في «دار الهلال» بادئا من مدير تحرير الهلال الى رئيس تحرير «المصور» فمدير وسكرتير «الكواكب» الى الجمعية المسماة بجمعية الطفل المنبثقة من دار الأدباء آنذاك ، وأذكر انني

حوربت من جميع الجهـــات سواء تلك التي هاجمتها او سواها .. من تلك الحرب انني وضعت في البلاك لست «القائمة السوداء» بمعنى ان اي مقال أو قصة لي ممنوع نشرها ومن يجترىء على نشرها من المحررين المعتدلـــين يوضع في البلاك لست مثلي أو يحارب حربا لا هوادة فيها ..!!

وغني عن البيان ان اي خبر او نقد أو تعليق على الكتاب قد منع منعا باتا ، وليس هذا فحسب بل ان العدوى قد سرت الى «الأخبار» فلقد جرت العـــادة على أن يهدي المؤلف نسخا من كتابه الى كبار الأدباء والصحـــافيين للتعريف به لمن لم يره أن يطالعه وينقده لذا رأيت أن أهدي نسخة من الكتاب السالف الى الاستاذة حسن شاه فاستقبلتني ببشاشة ووعدت بالتعليق عليه في الصفحة الأدبية . وهذا ما حدث ـــ ولكن لسبب لا ادريه انقلبت البشاشة في الزيارة التالية الى صدود وعبوس ، وعدم الرغبة في اطالة الحديث ، فقط بضع كلمات قصار أنهت بها الحوار بل انهت زياراتي «لأخبار الأدب» حتى يومنا هذا ..!!

واذا كان الكتاب قد حاز قبولها بدليـــل التعليق عليه في صفحة الادب والاشارة اليه اشارة ارضتني فيبقى تلك «الآثار الجانبية» التي ترسبت في نفسها من جراء هجومي على زملائها في المهنة وسد الطريق أمامي بعد وعدها بالتعليق على الكتاب وعمل ريبورتاج عنا في صفحة أخرى مقبلة ...

أيضا حوربت في التليفزيون ، ولكن هذه المرة من كاتبة اطفـــال يقول المنافقون أنها ـــ جهبيذة ـــ في هذا اللون من الكتابة ولكني اسميتها كما ذكرت في كتابي المذكور ولازلت أسميها بالعالمة بل العالمة مثلها ، لأن العالمة اذا فتح الله عليها وصارت أديبة فانها لا تذهب الى العمل بمايوه ..!!

انه باختصار عبارة عن ميكرو ـــ جيب في حجم «عقلة الأصبع» ولك أن تتصور ، ماذا يمكن أن يسميها مراهقو الكلمة بعد ذلك ...!!

هذه «المصيفة أو السباحة» ولولت وضربت على أفخاذها عندما رأتني كأنني عفريتا انشقت الأرض عنه أو جنيا ظهر لها من الكواليس ، وقصة هذا

اللقاء مذكورة في كتابنا السابق فلا مجال لتكرار سردها وانما الذي يعنيني هو أن هذا الهجوم أو ذاك عليّ انما سببه الأول والأخير انني لا أجامل في الحق ولا أعرف كيف اقول «للأعور ياكحيل العين» .

لقد هاجمت جمعية الطفل التي كانت العالمة أحد اعضائها فهاجمتني في التليفزيون فهاجمتها في «تحكم ابن خرافة ..» لا لهواية وانما رغبة تنقية « الكلمة» من الشوائب لأن الكاتب اذا كان صدىء فليس بمكنته أن يقولشيئا مفيدا ، اذا كان مظلما من الداخل فلا تنتظر منه كلمة مضيئة ، اذا كان غير مسؤولا فان سطوره ستكون حبالا يعلق عليها قاذوراته الخلقية ..

هؤلاء الذين يكتبون في الدين وهم سكارى ويدبجون المقالات النارية في الأخـــلاق وهم بين أحضان الغـــانيات ويتبنون «قضية العوالم» في السينما المصرية ، بل منهم تلك الفتاة التي تضع ساقا على ساق وتكعب السيجارة وتشرب الويسكي في مقهى «ريش» ونجيب محفوظ على قيد خطوات منها ولا تبالي ..!!

كل هؤلاء جميعا ليسوا بكتاب ...

الكاتب الحقيقي هو الذي يهجر قصوره وضياعه ويتبرأ من جلدته ودمه الأرستقراطي ليعيش ما بقي له من أيام بين الفلاحين والبؤساء المعدمين ...!!

لقد قدم تولستوى الدليل الناصع على التزام الكاتب عندما هجر قصوره الوردية وضياعه الواسعة وعاش بقية حياته بين الفلاحين اسكافيا يرقع لهم أحذيتهم ......!!!

* * *

ان ثمة فرق كبير بين ما فعله هذا الكـــاتب العظيم وما قاله «توفيق الحكيم» يوما من أنه لا يطيق زيارة قرية مصرية لأن الريف سوف يبقى كما هو دائما « بذبابه وقاذوراته وأكوام السباخ التي تملأ كل شبر فيه » ...!!

فرق كبير بين كاتب يريد الاصلاح لريف بلاده ، بادئا هذا الاصلاح بترقيع

حذاء الفلاح وبين كاتب يتوجس خيفة من زيارة هذا الريف ..!!

فرق كبير بين ما قـــاله «نجيب محفوظ» من أن جوائز الأدباء الشبان يستولي عليها أو بالأحرى يسرقها الكبار(١) وبين ما نقرأ من ان سومرست موم قد أسس العديد من الجمعيات لتشجيع الأدباء الشبان ذاهبا من التشجيع الى حد تخصيص جوائز مالية كبرى للمتفوقين منهم كل عام ...

ان مشكلة الأدب والصحـــافة عندنا تتلخص في كلـــمة واحدة .. هي الالتزام ، ذلك أن الكاتب اذا كان ملتزما كان صادقا مع نفسه ومع الغير ، اذا كان ملتزما ملك الضمير الحي والثقافة الواسعة ، اذا كان ملتزما التصق الظفر باللحم فأصبح جزءا من هذا الواقع ، جزءا حيا نابضا يستطيع بيسر أن يعبر عن مشاكل الناس ، فالتزام الكاتب شبيه بقسم الجندي بأن يخلص في الجهاد لوطنه والا يترك سلاحه حتى يذوق الموت ...

نحن بحاجة الآن الى ذلـــك الكاتب قدر حاجتنا الى الجندي الشريف الشجاع والفـــلاح المثابر النشيط والصانع الحاذق الدقيق والاستاذ العالم والطالب النابه ...

كل هؤلاء نحن بحاجة اليهم ، بل ان الحاجة تشتد الى الكاتب الملتزم في المراحل الحاسمة من حياة الشعوب أكثر منها في المراحل الميسورة او العادية ، ان تلك المرحلة ــ مرحلة بناء المجتمع المصري ــ على أنقاض حروب دامت عشرات الأعوام ليس بالأمر الهين ، انه مهما أن نبني مصنعا أو نشيد عمارة أو نجمل ميدانا ، أو نضع خطة شاملة للأمن الغذائي ولكن الأهم أن نبني الانسان الذي يستطيع أن يتحمل مسؤولية التغيير لأنه بدون هذا الانسان سوف نعزف على الهواء ونشيد قصورا على الرمال فتلـــك اذن مسؤولية الكـــاتب بالدرجة الأولى .. الكـــاتب الملتزم الذي يدعو الى أمن المواطنين وكرامتهم وحقهم في المسكن الملائم والعيش الكريم بل حق المواطن في التنقل وابداء الرأي ومساواته بالغير ... نحن بحاجة الآن الى ذلك الكاتب الذي

(١) راجع كتاب تحكم ابن خرافة في الادب والصحافة طبعة ـ ١٩٧٦ للمؤلف .

يعيش حياة المجتمع ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة ، الكاتب الطموح الذي ولد في بيت متهدم في الحارة فأراد له أن يكون قصرا في شارع عظيم ..!!

الذي ولد في الصحراء فأراد لها أن تتحول الى جنة فيحاء ..!!

الذي ولد في أتون الثأر في أقصى الصعيد فنشر السلام في القرى والنجوع ورفع على الديار أغصان الزيتون ..!!

ولكن ....!!!

هل يستقيم ذلك مع ما هو حادث الآن .. والجواب بطبيعة الحال بلا ، لأن ما يحدث في عالم الصحافة والأدب يتجاوز كل ذلك الى مجال المجاملات والعلاقات الشخصية ..!!

أذكر أن تقابلت يوما مع الأديب «أ.ط» الذي رحب بصداقتي ودعاني الىمنزلهكيما يتيح فرصة النشر لمقالاتيفي بلد عربي فذهبتاليه وأنالا ادري انني وتلك المقالات قد أصبحنا أسرى لشيء لم يخطر «لنا» على بال ..!

انني أستميح القارىء عذرا في ذكر بعض الاسرار الشخصية عن ذلك الأديب طالما ان المسألة تتعلق بقضية الأدب والصحافة التي نحن بصددها ..!

أنه رغم قصره وقماءته ينعم بزوجة «سندريلا» تبدو خرافة الى جانبها .!!

انها بطة برية ملونة ..!!

وربما .. لهذا السبب تعتبره مجرد «دمية» في يدها ، فهي الآمرة الناهية المتحكمة في ذوقه ، انه لا يهمها أبدا أن تحرجه أمام أصدقائه ..! اذكر أن جلسنا ذات مساء نتحادث بصوت عال بعض الشيء فاذا بها تخرج علينا من الحجرة المجاورة بقميص النوم قائلة لنا :

ــ هس ..! عاوزين ننام ...!!!

فتخدرت أعصابه وأعصابي «ونمنا» من الكسوف وأخذنا بعد أن «أفقنا»

نتبادل حديثا تافها غير الذي بدأنـــاه ، ولكن في همس كي ينـــام «الوحش الجميل» . . !!

بالطبع كان بامكاني أن أخرج في التو واللحظة ولكن ضغطت على أعصابي وتحملت من أجل الزوج الذي بدا ساعتها كجرذ صغير . . . !

المهم انه قد عرفني برئيس تحرير مصري يعمل في بلد عربي وهو بطبيعة الحال لم يعمل هناك لنشر الثقافة بين اخوانه العرب وانما اتخذ من الدار الصحفية «سلخانة» يفرض عليها معلمته ، من ذلك انه ــ تقاول ــ مع صاحب الدار على اصدار صحيفتين أسبوعيتين نظير عدة آلآف من الدنانير ، بمعنى أن صاحب الدار العربي ، يقبع في مكتبه يدخن النرجيلة ويشرب الزنجبيل حتى يفرغ «صاحبنا» من كتابة المقـــالات والأشـعار والأزجـــال والقصص ورسم الكاريكاتير ليتسم كل ذلك في نسج مطبوعة ومذيلة بأسمه أما اذا استعصى عليه الأمر أو احتـــاج الى مقـــال أو ريبورتاج أو قصة فانه يستوردها من القاهرة عن طريق الصديق ــ زوج البطة ــ الذي يكلف أدباء مثلنا بكتابتها ، وهذا يبرز نوع آخر من الجور والاستغلال ذلك انه اذا كان أجر المقال ثلاثين دينارا (ستون جنيها مصريا) فانه لا يدفع أكثر من خمسة جنيهات أجرا له بعد سلسلة من العذابات الذين عانوها مثلي يدركون تماما ان بعض النفوس البشرية «يسكنها» غول شره حقير . . . !

اقول أخذت اتردد على دار «الصديق» ولكن في حذر حرصا على كرامتي من أن تمزقها كلمات «سندريلا» الجارحة أو ربما «أقسمت عليه يمينا غموسا» بأن يبيت على الطوار فيفعل . . !!

ولكن بدلا من أن يحدث هذا أو ذاك حدث العكس . . !!

اعني أن «الملكة المتكبرة» بدات تخلع تـــاجها المرصع بالدر والجوهر وتنزل الى مصاف الرعية وتكلمهم بكلام أحلى من الشهد ، بل وتحيل الرعايا الى ملوك تقوم هي بخدمتهم ، فالشـاي هي التي تقدمه بيديها والماء المثلج والبتي فور وأهلا وسهلا تماما كما يحدث في حفلة تنكرية . . . !!

فأنا الذي قيل لي بالأمس «هس» يقال لي اليوم أهلا ..! وليس أهلا فقط ولكن أهلا وسهلا ....!!!

بل أزعم انني سمعت عبارة كاملة من الترحيب المسرف «أهلا وسهلا» .. شرفت يا بيه ...!!!

على أية حال لا بأس من التجربة سأكون «بيكا» الى أن تزول الأسباب ، ولكن الى أن يأتي الوقت الذي تجردني فيه من تلك الرتب والالقاب سأعمل جاهدا على تحقيق الغرض الذي جئت من أجله وهو تقديم نخبة من المقالات والريبورتاجات الشائقة للعمل على نشرها في صحف رئيس التحرير (اياه) .

هذا ورغم ان الصديق زوج البطة يكتب بطريقة «أبست جج» أي بتلك الطريقة التقريرية الجافة التي لا مجال فيها لأي خيال أو اضافة حتى بعض «التوابل الأدبية» على اي عمل فني أو ثقافي فانني قد قبلت طريقته تلك ورحت أكتب مايروقني تاركا له حرية الشطب مما لا يروقه من تلك المقالات ، ولو انه في الحقيقة شيء كان يؤلمني كثيرا ...

* * *

الأدهى من ذلك انه تحول الى «قومسيونجي» بل ان كلمة تحول تجاوز المعنى لأنه بدأ بتلك الصفة ساعتئذ علم انني أحمل مؤهلا قانونيا وأعمل في جهة حكومية لها بريق خاص فراح «يرمي شباكه» حولي ظنا منه انني الصيد الثمين الذي يستطيع به أن يرضى غرور «البطة» ولكن لم يدر انني «فزورة» مستعصية الحل ، أو انني حطاما ألقت به الخطوب على شاطيء الأيام فراح كل منـا «يرسم» على الآخر ويعزف على مسمعه سيمفونية لم تخـطر على بال ...!!

هو يريـد تزويجي من شقيـقة البـطة .. وانـا أريد نشر قصصي وريبورتاجاتي دون قيد أو شرط بمعنى ان كل منا يريد أن «يبيع الترام» للآخر ولكن في كياسة ودبلوماسية وقد تقول وكيف لا تتزوج غندورة أو شحرورة وتنشر ما تريد حتى تصل الى ما تريد ، فأقول ان ملكة الجمال هذه ليست الا

فتاة مجهولة الأصل سلطية اللسان تعمل مرشدة سياحية ، ومن ثم فانها تشرب مع الامريكان وترقص مع الاسبان، بل يمكن أن «تعود» الى الشقة مخمورة وهي في ذلك «معذورة» ..!! فعملهـا يتطلب الشرب والمجالسة والرقص والمؤانسة فاذا جئت «تقيم الحد» فأنت الصعيدي المتأخر ذو العقل المقفل أو المتحجر ..!!

اذن فهي خمسة مقالات تساوي سجن العمر كله ..!!!

خمسة مقالات يساوي اجرها ٢٥ جنيها تساوي الفا مهر وشبكـة بخلاف ما تقدم من الآثار الجانبية لتلك الزيجة الملعونة ..!!

قال لي يوما :

ـــ لماذا لا تتزوج ...؟!

قلت :

ـــ الظروف

قـــال :

ـــ أية ظروف تمنع شابا ناجحا من ان يتزوج ..!

قلـــت :

ـــ ربما كان الزواج مسألة وقت .

فانتهز الفرصة وأخـذ يلقي على مسامعي نصائحا في فوائده كتلـك الاشارات المطبوعة على ظهر كراسات وزارة التربية ...

وبطبيعة الحال كنت أدرى منه بفوائد الزواج لأن الانسان منا لا يعرف قيمة الشيء الا اذا حرم منه ...

المهم انه أخذ يكرر نصائحه حتى مللت حديثه ولكن ما ان جاء دوره في الملالة حتى كان قد اتخذ عدة قرارات قاسية ضدي ، وذلك بأن نشر لي بعض المقالات باسم «مغلوط» فاذا كان اسمي هو محمد صديق المزاتي ، فان هذا الاسم قد تحول بقدرة قادر الى محمد مصطفى البحيري اما بقية المقـالات وكانت بكل أسف «اجملها» فانه قد أحالها الى سلة المهملات ..!!

القرار الثاني : عدم دفع أي مقابل لما نشر ..!!

القرار الثالث : وضع اسمي في البلاك لستفي كل المجلات التي له صلة بالمحررين أو رؤساء التحرير فيها ..!!

القرار الرابع : الغاء «مشروع» ظهوري في التليفزيون لمناقشة موضوع كتابي المشار اليه ..!!

* * *

على انه وان كنت لم أعدم الوسيلة للحصول على حقي فان الذي ساءني هو اجباري على الزواج عنوة واخضاع الأدب لموازين تجارية رخيصة ..!!

* * *

ان ما يحدث وراء كواليس الصحافة والأدب لشيء مؤسف حقيقة ..!

ان لك ان تتصور عقبات من تلك الشاكلة تقف أمام أديب شاب ، ولكن الذي لا أتصوره أبدا هو توقف النشر على المـزاج الجنسي لرئيسة تحرير مثلا ...!!!

اذكر أن بعث بي الصديق الاستاذ مصطفى بهجت بدوي رئيس تحرير جريدة الجمهورية الأسبق الى مدير عام احدى المؤسسات الصحفية لنشر مجموعة من قصص الأطفال كنت قد كتبتها في ذلك الحين فما كان من المدير الا أن استقبلني ببشاشة وأوصى محامي الـدار بأن يعرض القصص على رئيسة التحرير المعنية قـائلا : انه الوحيد الذي «يسلك معاها» ....!!! ولكن ، لماذا «يسلك معاها» ....!!؟

هذا ما لم أفهمه الى أن أفضى الي بأشياء يصعب تصديقها .. فالمرأة المتنمرة تهوى اصطياد الرجال ولكنها كشهريار لها في كل يوم أو كل شهر رجلا تهواه ثم تلفظه كالنواة ولما كان الدور قد حل على «صاحبنا» فقد وجده المدير «أصلح ما يكون» لعرض القصص عليها ..!!

وفعلاً .. كان للعرض نتائج طيبة ، فما أن قرأت القصص حتى أشرت عليها بالنشر ثم بعد أن نشرت قصتان أحالت الباقي الى سلة المهملات ، فلما جئت أسألها عن السبب اشعلت سيجارة وقالت بلا مبالاة :

ـــ انه ليس من المعقول أن تبقى قصص «توفيق الحكيم» حبيسة الأدراج عدة أعوام وتنشر قصصك على التوالي ....!

وازاء هذا المنطق المتضارب أسرعت الى مدير الدار استوضحة السبب ، فاذا به يقول : ان هذا ما كان يتوقعه منذ البداية فمعظم العاملين بالمؤسسة من محررين وموظفين وعمال قد عملوا تحت رياستها ، ولكنها كانت تضيق بهم بعد فترة وجيزة ، ثم تطلب «طاقما» جديدا ، فاذا ناقشتها السبب أتهمتني بتعويق العمل وانطلاق المجلة وتطويرها الى آخر تلك التهم السخيفة التي تتخذها ستارا لأغراضها الدنيئة ، لقد حسبتني منذ البداية واحدا من اياهم ..!

واحدا يمكنه أن يرقص ويشرب ويضاجع فلما خاب ظنها أتهمتني بالجور والرجعية والجمود ولكن حاشى لله أن أتخذ منهـــا أو من غيرها عشيقة وأنا الرجل المتدين ، فضلا عن أن أصغر أبنائي من مشاهير الاطباء ...

ثم زفر .. زفرة محرقة وراح يكمل الحديث :

ـــ صحيح انا ارسلت القصص مع الاستاذ «........» المحامي لأن ده اللي استريحت له فقلنا : خلاص يبقى هو اللي يتعامل «معاها» عشان المركب تمشى .. لكن اديك شفت النتيجة ..!!

فاستأذنت من المدير وانا ألعن الظروف التي جعلت مني قنطرة تدوسها الغانية بكعبها العالي ولو نشرت قصصي بعدها بحروف من ذهب ...

ولـــكن ...!!!

هل قصص «الحكيم» أو غيرها من كبار الكتاب حبيسة الأدراج حقا كما تزعم هذه ـــ السيدة المحترمة ـــ ..!!؟

هـــراء ...

ان الأدبـــاء الشبان وحدهم هم الذين يعـــانون من مشكلة النشر في مصر ..! أذكر أن ذهب اديب شاب الى «توفيق الحكيم» يشكو له معاناته فقال له الأخير :

ــ الذي أعرفه ان العمل الجيد يفرض نفسه .

فقال الشاب :

ــ ان هذا هو المفروض .. ولكن المفروض شيء .. والواقع شيء آخر .. لقد ذهبت بقصتي هذه الى مجلة «.......» فرفضوا نشرها بحجة انها رديئة وهاكم القصة فاذا بالحكيم بعد أن قرأها يجد أمامه عملا فنيا جيد الشكل والمضمون .

فبعث بالشاب بقصة من تأليفه اي من تأليف الحكيم الى جريدة كانت تنشر له قصة أسبوعية وأوصاه بألا يخبر رئيس التحرير بأنها قصته .. فاذا برئيس التحرير يخبر الشاب بأنها «غاية في الرداءة» ..! وأن عليه أن يقرأ كتب التراث ..! فعاد الى الكاتب الكبير يخبره بما حدث ..!!

فانتظر حتى طلبها المسؤل بالتليفون فقال له الحكيم مازحا :

ــ لقد أرسلتها لكم فرفضتموها ..!!

* * *

والسؤال الآن :

ــ الى أين ....!!؟

الى أين تسير مشكلة الثقافة في بلدنا ..!؟

الى أين تسير الكلمة في دولة اخترعت الكتابة منذ سبعة آلاف عام أو تزيد ......!!؟

ان تلك المشكلة سلاح ذو حدين ، فاذا كنا نقول أن في مصر مشكلة «أزلية» حاليةومستقبلية هيمشكلة الادباء الشبان فان تلك لا تقف وحدها في الساحة لأن ثمة مشكلة اخرى تفرض نفسها بالحاح وتلك ما اصطلح على تسميته «بالعالمية» ، عالمية الأدب العربي عامة والمصري خاصة ... انه ليس بخاف ان العالم قد مجد نخبة كبيرة من أدباء وأدبيات الدول المختلفة بما ظهر لهم من أعمال شوامخ ، ليو تولستوى في «الحرب والسلام وآنا كرنينا والبعث» ...

تشارلز ديكنز في «قصة مدينتين واوليفر تويست» ، أندريه جيد في قصصه النفسي «سيمفونية الرعاة وعودة الابن الضال وكهوف الفاتيكان» .

برناردين دي سان بيير في «بول وفرجيني — الفضيلة» اليكس هيلي في قصة «جذور» .

سومرست موم في «ذات الشعر الذهبي وتريزا» .

لامارتين في قصته الرومانسية الرائعة «ميخائيل» أميل زولا أمام المدرسة الطبيعية ، هيتشكوك وأجاثا كيستي في قصص الجريمة ....

كل هؤلاء لم يدفع بهم مصادفة الى القمة ، ذلك ان منهم من اعتلت صحته في الدرس والتحصيل ومن كف بصره وعاش ضريرا أو شبه من ادمان القراءة ، ومن ادخل أبنائه الملجأ ليتفرغ لتأليف كتاب ، كجان جاك روسو(١) ...!!

ومن ضحى في سبيل الأدب بحياته وسعادته الزوجية كتولستوى وتشارلز ديكنز ..!!

ورغم ذلك فانهم قد وصلوا ، فالعبرة دائما بالنتيجة وتلك محصلة مجهود شاق طويل ..

---

(١) العقد الاجتماعي .

ان من الملوك من آل اليه التاج واطاحت به الثورات ومن ورث العروش وهزتهـا الزلازل والبراكـين ومن غنم القصور ودمرتها العواصف وأسفتها الرياح ، ذلك أن القدر يزن دائما أعمال الانسان بميزان حساس ، فلا يصح في النهاية غير الصحيح .. والصحيح ما فعله هؤلاء الأدباء المبدعون والعلماء المثابرون الذين اختاروا الطريق الصعب وتحدوا المستحيل ..!

يقول برنارد شو «ان من العجز أن يجلس الانسان يندب حظه العاثر منتظرا أن ياتي له الآخرين بالسعادة على طبق من البللور او الذهب» ..

ويقول آخر «ان ظلام العـالم كـله لا يستطيع أن يطفي ضوء شمعة واحدة» ..

ولـكن ..!!

وهذا هو السؤال ...

الا يوجد من ادبائنا من يحمل ذات المشعل ويسير في درب الأدب ..؟ أم انهم قد اعتبروا «انه ليس في الامكان أبدع مما كان وأن ما وصلوا اليه هو القمة» ..!؟

انه اذا كانت الواقعية أو المحلية اقرب الطرق المؤدية الى العالمية فقد وجد من أدبائنا من قطع شوطـا بعيدا في هذا المضمار . فواقعية «نجيب محفوظ» تفوقت على واقعية كثير من الكتاب العالميين بما في ذلك تولستوي الذي يصفه النقاد بأنه «النقاش» ...!

* * *

لقد قرات ما ابدعته قرائح أو اقلام كبار كتّاب الواقعية في العالم فلم اجد لواقعية «نجيب» مثلا ، عدا كاتبة واحدة هي «بيرل بك» التي استطاعت أن تجسد واقع الفلاح الصيني في رواية «الارض الطيبة» بما لا يدع مجـالا لواقعية سواها ..!!

أن «الأرض الطيبة» ليست قصة عـادية ولكنها وثيقة فنية تـاريخية واجتماعية لمرحلة عاشتها الصين قبيل ثورتها الشيوعية سنة ١٩٥٠ ، ومع

ذلك فان الكاتبة التي شدت انتباه العالم لم تستطع أن تنتهج « سياسة النفس الطويل» حال الغوص الى القاع من تلك المحلية ..!!

لقد اقتضت اصالة الكاتب والتزامه أن يسير على نهج واحد فيما أستنه قلمه من طرائف فنية وهذا ما سار عليه أديبنا منذ البداية ، فالذي يتابع أعماله يجد انها تسير على منوال واحد لا فرق بين نسيج وآخر فرادوبيس وكفاح طيبة «التي جرت أحداثهما منذ عدة آلاف من السنين» هذه الاحداث لا تفرق كثيرا عن نظيرتها التي «جرت في الجمالية» ممن تضمنته الثلاثية وزقاق المدق وغيرها ..!

فالواقعية .. هي الواقعية حيثما جرت تلك الأحداث في كل زمان ومكان ...!

لقد كتب نجيب عن الواقع المصري تماما مثلما كتبت بيرل بك عن الصين الا أن قلمها المبدع قد اهتز بين أناملها عندما جاءت تعبر عن هذا الواقع فخلت قصة «الأم» وغيرها من تلك المحلية اللصيقة التي عهدناها في أرضها الطيبة ....!

ايضا فان نجيبا قد استخدم الرمز وسادت روح السخرية فيما يكتب ، تلك السخرية التي بناها على دراسة نفسية وفلسفية مستفيضة فهو القائل على لسان بطل من أبطال قصة له «انني عندما أضحك بلا سبب ، فانه يكون لهذا الضحك ألف سبب» ..!!

فالضحك عنده فلسفة .. والفلسفة تعني نوعا من هندسة الفكر التي تبغي هدم القديم من العادات والتقاليد واقامة المجتمع على نسق خلقي وفكري جديد ....!!

* * *

انك اذا طالعت سجل الأدب فانك واجد بالضرورة كاتبا مثقفا موهوبا

لم تبخل به الأيام على ذلك البلد الأمين .. قد يكون الكاتب ابن الحارة أو ابن الأرض أو ابن الصالون الأدبي ، أي اديبا من صلب اديب ، ولكنهم في النهايةأبناء مصر الخالدة التيأهدت العالممصباح الفكر منذ الازل، فطهحسين الذي بهر العالم بقصة «الأيام» وارتفع بفكره الى مستوى انساني رفيع ، والعقاد الذي قرأ في الأدب أكثر من خمسين الف كتاب واهدى المكتبة العربية أكثر من سبعين ، وتوفيق الحكيم الذي قرأ المسرح الفرنسي بل قرأ الهندسة والطب والفلك والتنجيم والتاريخ فضلا عما قراه في النقد والشعر القديم والحديث عربيا وعالميا ويوسف ادريس الذي حصل دارسوا فنه القصصي على عشرات الرسائل العلمية ..!!

كل هؤلاء لا شك قد وصلوا الى مستوى عالمي ، بيد انك اذا جئت تسأل واحدا منهم وجدت تخاذلا في الراي وتقاعسا فيه غير مشجع ..! فمن قائل «ان اللغة العربية تهتم باللفظ أكثر من اهتمامها بالمعنى(١) وهذا اللفظ يضيع عند ترجمته الى لغة اجنبية ، فضلا عن أن العالم قد اخذ فكرة عن العرب مؤداها انهم أرباب سيف وقتال وانهم قد فضلوا هذا اللون من السلوك على ما عداه ..!!

ومن قائل «ان الدولة هي المسؤولة عما وصلت اليه حال الأدب — د. يوسف ادريس — فالذي تنفقه على أجهزة الثقافة ، كان يجب أن ينفق أساسا في خدمة قضية كهذه وعلى سبيل المثال ، فان أسبانيا عندما أرادت أن يحصل أديبها ايفو أندريتش على جائزة نوبل في الأدب فأنها قد وضعت لهذا الغرض — خطة علمية — واستقدمت النقاد والمترجمين من مختلف الدول من أجل تعريف العالم به وترجمة أعماله بعكس ما تفعله الدول عندنا من اهمال لأعمال

---

(١) توفيق الحكيم ، ويستدل على ذلك بمطلع زجلي لبيرم التونسي يقول فيه :
يا أهل المغنى
دماغنا
دقيقة سكوت لله
بمقولة أن هذا المعنى الجميل يضيع عند ترجمته الى لغة أجنبية بضياع موسيقاه اللفظية ...

أدبائها الكبار ، بل ووضع «الجهلاء» على رأس الأجهزة الاعلامية وهؤلاء لا يفعلون شيئا من أجل خدمة القضية ، أغرب من هذا ما يراه بعض النقاد من ان للعالمية أسباب لا تتصل بما للأدب من جودة وابداع او تعميق وتأصيل ، فالدول القوية تغزوا الدول الضعيفة بسهام الفكر تماما مثلما تغزوها بالحديد والنار ومن ثم فانها تفرض عليها سيادة فكرية تظل باقية ما بقي لها من قوة وسلطان وحضارة وعمران حتى يتبدل الحال وتدول دولة القوي فاذا بالسيد مسود واذا بمن كان بالأمس ملكا يساق اليوم في زمرة العبيد ، فالعرب قد فرضوا ثقافتهم على أوروبا في العصر الوسيط حتى اذا دالت دولتهم انحسر المد الثقافي وبدأ يأخذ مسارا جديدا قوامه الاتجاه من الغرب الى الشرق بعكس ما كان يحدث في الماضي ...!!

* * *

هذا ولئن كان للراي الأخير وجاهته الا ان الذي لا شك فيه ان العرب «أصحاب لسان» وانهم قادرون ودائما على الوصول الى مستوى العالمية دون عناء .. لقد زعموا ان «الف ليلة وليلة» هي الوحيدة التي شغلت العالم من بين أشكال الأدب العربي وما دروا ان الكلمة منة أو نعمة أفاء بها الخالق على العربي ساكن الصحراء ليس أدل على ذلك من أن الفلاسفة قد شغلوا زمنا بقضية «الوجود الالهي» .

فمن قائل : ان العقل هو الوسيلة الوحيدة التي يستطاع بها اثبات وجود الخالق .

فهذه شجرة لها جذور وساق وأوراق وتلك أخرى لها نفس المواصفات ، الا ان الأولى تزهر وتثمر والثانية تزهر ولا تثمر بل من المزهرات زهرها الشذي «ومن أعطى الشكل خلوا من المضمون» ..!!

ومن الثمر ما اختلفت أشكاله والوانه مذاقاته وطعومه ..!!

ومن الطير ما هو جارح وما هو أليف ، بل ما هو ساجع مغرد وناعق ناعب ..!!

فللكون اذن قوة خفية تسيره بقدر .

ورغم ذلك فان العقل يخدع ..!!

وعلى سبيل المثال ، فان من البديهيات التي لا تقبل الشك «مسألة اختلاف الألوان» .

فالذي يضفي على الشيء لونا معينا هو تساقط مجموعة من الأشعة ذات أطوال مختلفة عليه اعني ان أي شيء لا بد له من مجموعة أو حزمة من الاشعة ذات أطوال متحدة تتساقط عليه وهذا بعينه الذي يفرق بين لون وآخر لهذا الشيء أو ذاك ، فكأن العقل قد قادنا الى تصديق أشياء أو أدخل من روعنا حقائق وهمية وتلك خرافة من خرافات العقل لها توائم ..!!

فانت اذا نظرت الى سطح مكتبك بالعين المجردة وجدته مصقولا لامعا في الوقت الذي اذا نظرت فيه اليه بالمجهر هالـك ما عليه من جبـال وتلال ووديان ..!!

أيضا فانك لو تأملت القمر من خلال ثقب صغير وجدت الثقب قد وسعه وهذا ما تنكره طبيعة الكوكب العملاق ..!!

* * *

وعلى هذا .. افليس من الجائز أن أرى الشيء مستويا في اعتدال وهو الذي قلب راسا على عقب ..!!؟

تماما مثلما أصارع الأسد في نومي فأمزقه اربا ، أو اضرب الحجر الصلد بقبضتي فأشقه نصفين ...!!؟

اذن فأين أنا من الله أو بالأحرى أين هو مني ..؟

لقد أجاب على هذا التساؤل من الفلاسفة رجل عظيم هو الامام الغزالي الذي استدل على وجود الله «بالحدس»(١) عند الخاصة من الناس ...

---

(١) القلب أو الاحساس .

ولكن الغزالي كما قلنا فيلسوف بل فيلسوف عظيم ضرب بآراء العقلانيين عرض الحائط ليثبت كل ذلك في نظرية كاملة متكاملة ، ولكن ما بالك باعرابي بسيط يبرهن على وجود الله بذات الشيء (الحدس) في قصيدة مجهولة بل في ثلاثـــة أبيات منها :

مـــا بيني ودين الله نافـــذة　　　قد سدها «الفكر» بالتعليل والعلل
وأرى اللـــــــه من خلفها نور يقبلني　　　فلا «أحس» بـــه واضيعتا القبـــل
لا زلت أبحث فيالصحراء عن جملي　　　حتىانتبهت لنفسي راكبا جملي..!

انه بهذا الأسلوب الساخر يهزيء بكل فلاسفة العقل والمادة بل كل فيلسوف ينكر الصلة القوية بين العبد والرب ، فاذا كنت فيلسوفا وأردت اثبات ان لي عينين استخدمت في هذا الاثبات تقول :

كل انسان له عينين

وبما انني انسان

فاذا لي عينين

في حين ان عيناي مثبتتان في راسي أو وجهي ولا تحتاجان الى اثبات .. فالفلسفة تعكر ولا تصطاد ..!

وربما أدت بصاحبهاالى مهاوي الضلال، فيسير في الظلام من حيثأراد النور ..

أيضا مما نستدل به على طبيعة العربي الملهمة ما روي عن أحد الخلفاء العباسيين من انه قد استخدم في بلاطه ثلاثة من الغلمان ، الأول يستطيع أن يحفظ أية قصيدة مهما بلغت من الطول والتعقيد بمجرد تلاوتها عليه لأول مرة ، والثاني يستطيع الحفظ بعد التلاوة الثانية لها ، والثالث بعد التلاوة الثالثة ، فاذا امتدحه احد الشعراء تهرب من مكافآته بحجة انها رويت مرارا حتى حفظها الناس ثم يأمر الغلام بتلاوتها فالثاني والثالث حتى يخرج الشاعر صفر اليدين ..!! فهل يستطيع شكسبير أن يحفظ قصيدة طويلة معقدة تتلى لأول مرة ..!!؟

اننا حين ندافع عن اللسان العربي لا نفعل ذلك بوحي من عاطفة بقدر ما نسجل من حقائق تاريخية ...

سوف ينظر العالم الى الأدب العربي بشك اول الأمر .. نعم .. ولكن هذا الشك سيزول بزوال المؤثر هنا ، هو تلك الاختام التي ختمت بها القماقم فعلقتها بالشك وأضفت عليها غموضا محيرا ...!

فلتفتح الأبواب والنوافذ ليرى العالم سحر بياننا ويتنسم عبير قوافينا ويمجد بدائع حكاياتنا واساطيرنا ...

انه بدلا من تلك الحفلات الساهرة الصاخبة التي تقيمها سفاراتنا وملحقينا الثقافيين في الخارج بدلا من اشرطة التانجو والسامبا والفالس وزجاجات الشامبانيا التي تراق بلا حساب ، بدلا من هذا أو ذاك ليحاول مبعوثونا ترجمة الآداب العربية الى لغات العالم المختلفة لتعرف الدنيا من نحن ..؟ من نحن في عالم الكلمة من عهد سنوحي الى طه حسين ونجيب محفوظ ، لقد آن لنا أن نتخلص من «عقدة الخواجا» فما عنده صواريخ وطائرات وما عندنا أمجاد وحضارات ورسالات سماوية وفلسفات ...!!!

* انني لا اتصور كيف تتناسى الدولة دور الفكر في بناء المجتمع الحديث ..!!

* لا أتصور ان تكون الجائزة الأولى في نادي القصة مائة جنيه عن الرواية ، هذه المائة التي يتقاضى شكوكو مثلها عشرون مرة في منولوج .

* لا أتصور أن يرحل اديب عظيم كالعقاد فيرفض محافظ أسوان اقامة تمثال له الا بعد شفاعات ورجوات ..!!

* لا أتصور أن يسير نجيب محفوظ على قدميه من منزله الى جريدة الأهرام وبالعكس يوميا بينما تمتلك نجوى فؤاد واحدة من أربع سيارات في الشرق الأوسط ...!!!

* لا أتصور ان يصادقني أديب من ادباء الأقاليم لأنني في مركز مرموق حتى

اذا أقل نجمي شهرا ابتعد عني وكأنه مومس كانت في حاجة الى «فتوة» يحميها ..!!

* لا اتصور أن يكون الأدب للأدب وحده فتلك رهبانية يرفضها الفكر الصحيح والعواطف الشابة ..

* لا أتصور أن تكون العلاقة بين الأدباء الشبان قائمة على الحقد والكرهية أو النفعية والشللية ..!

* لا أتصور أن يدعو أديب شاب الى قراءة مؤلفاته على الحوائط والنوافذ ودورات المياه فالكتابة فن والفن ذوق واحساس كما أن للفن نبالته واحترامه ...

كل هـذا لا أتصوره ...

ولكني اتصور ...

* أن تحتضن الدولة أي اديب شاب وتؤمن له حياته ومستقبله بمجرد أن يظهر نبوغه واقصد بتأمين الحياة ، تأمين حياة تليق بمستوى مفكر في دولة .... شعارها العلم والايمان ..!

* أن تهتم الدولة بادب الأطفال فتعمل على التوسع في انشاء مجلات الأطفال وتحسين مستواها وايفاد البعثات للخارج للوقوف على آخر تطورات الكتابة للطفل .

* ان يولي الكبار من أدبائنا جل اهتمامهم لأدب الاعتراف فيغادروا مخاوفهم ويعترفوا اكثر ...

* أن تخصص مساحة أكبر لأدب الرحلات على خريطة الأدب العربي والا يركز الأدباء المرتحلون على الملاحظات التافهة فيما يشاهدون ..!

وأخيرا اتصور أن يكرم كل صاحب فكرة جديدة «لا أن يضرب على أم

رأسه » لان تلك الرأس رحم ينجب الافكار ، فهذا الكتاب الذي بين يديك قد نلت بسببه عين الجزاء الذي ناله «توفيق الحكيم» عندما أصدر «يوميات نائب في الأرياف» فلقد أحيل الى التحقيق وجوزي بخمسة عشر يوما لكشفه جهل الادارة المصرية في ذلك الوقت وأنا أيضا حدث لي نفس الشيء . .!! أحلت الى التحقيق وجوزيت بجزاء افدح ، ولكن بطريق غير مبـــاشر فلقد دبر لي بعض الجهلاء الحاقدون من زمــــــلاء الادارة مكيدة شهدوا فيها ضدي زورا وبهتانا فجوزيت كما قلت بجزاء اكبر ، بل بلـــغ الأمر أن طالبوا بنقلي الى مــــا وراء الشمس أو الى بلاد «واق . .الواق» لولا أن «وقف» اللهبجانبي ورد سهامهم الى نحورهم وجعل من ثورتهم زوبعة في فنجان . . كل ذلك لا لشيء الا أنني قد أسهمت بنصيب في مدينة الصحافة والأدب فيما أكتب من قصص وأدبج من مقالات في جرائدنا ومجلاتنا . . . . كل ذلك لا لشيء الا أنني قد عكفت عامين على تسجيل هذا الكتاب مضحيا براحتي ووقتي قانعا برضائك أيها القاريء العزيز . .

ورغم ذلك فانك اذا سألتني :

ـ لماذا تجشمت كل هذا العناء . . .!!؟

قلت ببساطة :

ـ لأنني أحب بلدي وأهل بلدي وتراب بلدي وعاصمة بلدي ، فأهله أناس طيبون وترابه الحناء يشقه نهر من الجنة(١) وعاصمته أم البلاد . . . أم الدنيا . . .

---

(١) راجــع « الاسراء والمعــراج » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهرست

مؤسسة
مطابع معتوق

بيروت - لبنان



هذا الكتاب

هذا الكتاب شراع سوف يقودك في رحلة رائعة تنسى فيها كـــل شيء حولك الا أنك تعيش بقلبك ووجدانك مع عجائبه وطرائفه ..

انه هنا في تلك المغارة الصغيرة المظلمة اختبات السيدة العذراء بطفلها الكريم الذي تكلم في المهد واحيا الموتى واشفى الابرص والمجذوم باذن اللـــه ...

وهنا خزانة الاثار النبوية الشريفة بما حوته من مخلفاتالرسول عليه السلام بالمسجد الحسيني ...

أيضا سوف نعرف سر تلك الفرقعة الهائلة التي زلزلت جبـــل المقطم وجعلته يسير وكانه طفل يحبو على قدميه .... ولا ننسى ان نضحك الى حد الاغماء مع ظرفاء القاهرة خلال تاريخها الطويل ...

انها كما قلت رحلة شائقة سجلتها في عامين لاهدي اليك الشراع والمجداف وانه لشرف لي أن أحترق كالشمعة لاهدي اليك الضياء ...

المؤلـــف